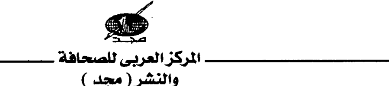
مجموعة قصصية

غواية السِّكين

ابتسام الخميري



المركز العربي للصحافة
والنشر (مجد)



إهداء

حاولت كتابة مقدمة تقليدية لأول أعمالي:

*أدمتني الشوارع والطرقات.. ألعق من الذاكرة بعض الأنا.. تبهرني أشعة الشمس وتحيرني العتمة.. يهزني الصخب أشلاء مترامية إلى أعلى الأعالي.. فأرتع في ربوع بلادي: تونس الحبيبة.. أجوب الجبال والهضاب.. أجوب الأسواق العتيقة فتدغدغ روائح البخور حنيني لذلك الزمن أو عساه هذا الزمن.. فأرتحل حُبلى بحلم الأنا وحلم الآخر وحلم النحن.. وتولد مني بعض الأناة.. بعض الهمسات أو بعض النغمات.. وكيف لا يصقل حسي ويتفجر ونحن في عهد التغيير ننهل عطاء تلو العطاء؟!

عهد باتت المرأة شريكا فاعلا في المجتمع بعد أن حظيت بعدة حقوق تحفظ كرامتها وتصونها.. أعتز بكوني امرأة تونسية أحمل أحلاما.. وحلمي الأكبر أن ألامس حلم كل امرأة عربية وأضاجعه..

لذلك سافرت إلى أم الدنيا، عشقي اللامتناهي.. مصر الحضارة والجمال لأبثها خوالجي ومكنوناتي ولا شك في أول عمل لي لأنها البلد الكريم الذي احتضن الكثير وساند الكثير وكانت له مسلكا للعالم.. لذلك دسست حلمي بين جنباتها وكلي أمل بأن يقبلني المصري أولا ثم العالم العربي.

فاسمحوا لي أن أهدي كل قارئ عربي نبض وجداني وزفراتي المرتحلة على الدوام. وبكل حب...

ابتسام الخميري

رقـم الإيـداع: ١٦٨٨٥ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-18-0464-8
غـلاف: إبراهيم هارون
جمع وتنفيذ: أحمد فتحى
مراجعة لغوية: مصطفى بدر
تصحيح: جمال يوسف - دنيا زينهم



الناشر:
المركز العربى للصحافة
والنشر (مجد)
ARAB CENTER PRESS
AND PUBLISHING "MGD"

القاهرة: ١٩٢ ش الملك
فيصل - الطوابق
ت: ٣٨٢٥٠١١ ف: ٣٨٢٥٠١٢

البريد الالكترونى
alghadalarabi@hotmail.com

وتستمرُّ الحياة

❖ ❖ ❖

البرد اكتسح الأمكنة جمعاء، فالرياح ترسل صفيرا متواصلا لامتناهي، والسماء باهت لونها، لا هي صافية ولا هي ملبدة، كل الطبيعة تنذر بالجدب والقحط، تنذر بالوحشة والسكينة.

الساعة الرابعة بعد الزوال، رنَّ الجرس معلنا نهاية اليوم الذي مر أخيرا ببعض من السلام. أسرعت الخطى نحو محطة القطار، "عفوا هل يمكن أن أسألك؟" هكذا قطعت تلك الفتاة حبل أفكاري وجعلت خطاي تتباطأ في العودة "ما رأيك لو نسيرقليلا؟ " وفعلا سرنا نتبادل حديثا كأننا أصدقاء منذ أمد طويل، فاجأتني بعفويتها وتساؤلاتها. لكنِّي أجبتُ ببعض الاحتراز.

أخيرا أخذنا الحافلة فقد أصبح طريقنا واحدا، لكن النهاية تختلف، وتواصل الحديث عن كل شيء إلا عنك، عجز لساني رغم أن فكري قد سافر منذ رن الجرس إليك، وأبحر في عالمك...سألتني: ما الوفاء؟ عجبا لهذا التساؤل: منذ ربع ساعة فقط تعارفنا وتسألني عن الوفاء؟ تركت لها المجال لتتحدث هي عن

تجربتها عن واقعها عن. . . عن. . وتواصل الحديث.

العصافيــر تمر أفواجا أفواجا . كأنه الربيع. يتبعــها رذاذ خفيف. رفعت رأسي كمن يبحث عن شيء، ســألتني "ما الخطب ؟ " عجز لساني عن التعـبير، فقلت " عســاها تمطر الآن " ثم ضاع فكري في تلك المعــاني: الوفاء، الإخلاص، ولكن مَنْ يــخلص الآن؟ لا أحد إطلاقا، فكلهم، معشر الرجال، لا يعتــرفون بهذه العبارة في لغتهْم، نظرت إليها بإصرار وسخرية قائلة: الوفاء؟

سبع سنوات أمضيتها معه بأحلامي وطفولتي والنتيجة رحل. . . . قد كان في لحظة الخيانة، المهم! كانت مــجرد تجربة في الحياة. . فأيُّ إخلاص وأيُّ وفاء تزعمين؟

المسكينة تعجبت في البــداية ثم عاتبتني " عساني لم أقـدِّم الكثير حتى أحظى بالقليل من الوفاء أو حتى بحق المطالبة بالإخلاص .

أقلتنا الحافلة معا وقد بعثرت أفكاري وأيقظت مشاعر كنت زعمت أنها انتهت وانْمحت من الذاكرة.

لكن الآن أنا أســرع الخطى لأرى من سكن فكري ووجــداني. الآن أسرع غــير عابئــة بالماضي. الآن صرت أقـدم الكثير عــساني أحظى ببــعض القليل. وهذه الأحــلام الوردية وهذا الإصــرار على المضي في هذا المسلك جعلني أتمنى لو أطير لأحلق على كتفيه. ثم نظرت من بلور النافــذة لأرى الحشد من العــصافيــر يمرُّ، تمنيت لو كنت طيرا.

نزلت الصديقة تاركة لي صورة أروع عن الحاضر عن غدي، عن أملي المتجدد والدائم، عن شغفي لرؤياه عساه يخلص لي؟ فهو مختلف: كل حركاته، سكناته تنبيء بأني وجدت، أو كدت، مخبئي، وصلت أخيرا محملة بالشوق والحنين، وكان ينتظرني، بلهفة ألقيت رأسي بين أحضانه كمن يبحث عن دفء و حنان لطالما فقدتهما.

و. . . أنغام الموسيقى بدأت تزيح عني تعب اليوم بأكمله حتى تلاشى مع نفاث دخانه. طلبت منه الخروج معا لاستنشاق هواء البحر، فاعتذر بحجة برد الطقس و رداءة الأحوال الشخصية. لم أشأ إغضابه فسكتُّ، بعد ذلك سأل عن الساعة متعللا بمهاتفة أهله.

سمعت قلبي يصرخ " لقد تعبت من كل هذا " لم أوله اهتماما بل بَقيت رفقة أنغام الموسيقى التي بعثتني من جديد. غيرت ملابسي بعد أن خرج لبعض الدقائق وأسرعت للمطبخ: لم يأكل شيئا، بدأت أعدُّ العشاء وأزين المائدة. وأعددت إبريق الشاي حتي تكتمل المائدة من كل شيء. بدأ الوقت يمر. أكثر من ساعة ولم يعد، ما الخطب؟ مرة أخرى صرخ قلبي من الأعماق دون مجيب. فجأة طرق الباب فتحت له لكنه على غير عادته، بل على عادته دخل، يهرج معلنا أنه التقى بأخرى، فقبلت مزاحه على أنها مجرد سخرية، طلبت منه مشاركتي العشاء فاعتذر، بل جلس قبالتي وبدأ يسرد: وما سمعت

فـقط هو قـوله: «أنت تعـرفين و تفـهـمين لقد الـتقـيت بصـديقـة قديمة. . .»

آه! أخـيـرا أجـدني وحـيدة لا«أنـيس و لا جليس»، بكل جـرأة استأذنني لمقـابلتها. دون أن يهتمّ بحـقوقي عليه كزوجة أمـضت معه سنوات عمـرها، وجدتني أخـتنق بيديه اللتين كـانتا تداعـبان أطراف جسـمي تحوّلتا إلى ثعبـان يحاصرني، وبكل كـبرياء أجبتـه: " وما المانع؟ هذا طبـيعي لك مـا شئت. " لم يلحظ حـتى إنني لم أتناول العشاء. .

خرج مـسرعا دون أن يقبلني كـالمعتاد وأغلق البـاب وراءه، تاركا مشاعري في احتضار وأحلامي تتبخر بسرعة. تسلل الجرح إلى كامل أجزائي حد الاحتضار، ودون إرادتي لم أجد غير الدموع تجتاحني في لحظة الغربة والوحشة، لكن هاجسا بداخلي هتف:

- عساني أتوهم ما جرى؟ عساه يسخر كما اعتاد! لم أصدق؛ بل رفضت مشاعري التصديق.

و حينما عاد برفقة امرأة أخرى صرخ الفكر بأعماقي: إذن أفيقي مشاعـري من غفوتك و تأملي الواقع مليـا. هذه امرأة دونك يرتضي ملامستها ولربما ليست الوحيدة . . . استـقبلتهما بابتسامتي المعهودة ثم تركتهما معا في غرفة واحدة. وانصب اهتمامي على الدراسة.

أحقا إلى هذا الحد يتجرد الإنسان من إنسانيته ويقضي بعضنا على مشاعـر البعض. عجبا؟ كنت في وهم وخـيال كبيرين فـقد نسجت

الأقدار لي هذا المشهد عساني أقتدي. فعصرنا ليس عصر المثل والأحلام. و لامكانة لخيالاتي فيها الآن

تغادر المكان كما غادر هو خلجات نفسي. ويعود لي لكنه لن يجدني بعد أن قتلني، بعد أن مزق أحلامي بكل قسوة وعنف، فبالرغم من أنه لاحظ تغيري، لكني برعت في إقناعه بتقبلي للموقف: أتراني بشرا مخالفا؟؟ أأعلن انهزام مشاعري وألمي؟؟ كلاً فذي مشاعري وحدي لايشاركني فيها أحد، فلأبق الأقوى دائما. لن أرتضي بأن تخور قواي لمجرد مشاعر عابرة ، ولمجرد تجارب بسيطة من ضمن تجارب الحياة. لن يمس إنس كبريائي ولاكرامتي، فأنا الأقوى دائما وليرحل إلى عالم ليس مني و لاأنا منه. ومرة أخرى أعزم على الرحيل والمضي في طريق آخر مختلف دون مشاعر ولا أحلام، بل بكل ثقة في النفس وأمل في غد أجمل... بكل تناقضاته. أواصل طريقي بكل حزم وعزم على النجاح في حياتي العملية بأن أعمل أكثر لأغير واقعي وأحلامي التي طالما سخرت منها...

وآخذ قطار العاشرة صباحا بخطى ثابتة. بلغت القطار كدت أصعد لكن شيخا كان يجلس قبالته أوقفني وطلب مني الصعود في العربة الموالية ابتسمت له ولبيت رغبته تلك... لحظة هي يعسر عدها أو حتى تمييزها، تعجز الثواني عن احتسابها، بل ويعجز الزمن عن تلفظها. هي تلك اللحظة التي أمسكت فيها باب القاطرة و صعدتُ:

" يا للقـدر الأحمق؟ " يا لهـا من صدفـة أغرب من الخيـال. هناك ينتظرني كمن رتب موعدا للقاء جديد. . . ولهفة جديدة وعزم جديد لنظل بل لنواصل طريـقنا معـا . سـارع ببراعـته المعـهـودة لتقـديم اعتذاراته، وأسفه الشديد لتصرفاته آخر مرة:

- كانت امرأة مطلقة لها طفلة صغيرة تحتاج لمساعدة مادية لاغير.

- . . . . .

- تأكدي عزيزتي.

لم أجد سوى تلبيةِ رغبتـه في المحاولة وأن أحاول معه من جديد، مهما يكن لايزال زوجي.

أفلحت إلى حد مـا في إقناع ذاتي أن أعطي قلبي فرصة ليـسامح ويصفح، لربما يتغير ويحترم مشاعري !

هاهي أحلام تولد مرة أخـرى وتظل تكبر وتكبر، حتى لا تَسـعُها الأرض ولا السماء، تستمر في الكبر إلى ما لانهاية.

وتشرق الشمس حاملة لنا أملا نحو الغد، عاكسة كل أنوارها على تلك الأزهار والأغصـان فبدا كأنه الـربيع في أبهى حُلَّةٌ. . . غدا مع كل شروق الشمس يَنْمحي اليأس والقنوط، مع كل اشراقة شمس.

وأن تكبر الأمـاني وتتوالد ثم تتكون في أحشائي طفـلا لايعرف للمهانة بابا ولا للضعف طريقا. . . سوف تستمر الشمس في شروقها فلن تتوقف مطلقا عن ذلك. عندئذ: أنظر إلى الـعينين والشفتين، لا مكان لغير الصدق والوفـاء، أحقا ما يزعم حقيقة؟ ومـا عساني أفعل

غير التصديق، أو محاولة التـصديق، عساني أوقف هذا الضياع ، ما بين نوامـيس العادات والواجب وبين أريج أحـلامي اللامتناهـية. . . عساني أوقف السـاعة من التقهقـر إلى الوراء، بيد أن القلب كان بين الفينة والأخرى يبـعث تنهيدة من أعمق أعمـاقه، كان دائم الرفض، كان دائما يدغدغ العقل أن يفيق ويـنهض من غفوته. . . هكذا استمر الصراع بينهـما وتواصل:

ذات يوم، رحل الفكر إلى عـالم ليس يعـرف، رحل حـيث أراد إيقاف كل شيء، رحل إلى مكمن الحقيـقة و المعرفة.

ذات يوم قـرر المضي إلى ركن أراده له القلب. إن لحظة الـتقـاء العقل بالقلب هي لحظة يصـعب حصرها أو استيعـابها، لكنه حدث بالرغم من كل شيء، ويقـودني القدر من جـديد إلى ذلك المكان، إلى المخدع المعهود، تتسارع قدماي كمن اكتسح سباق أراد من ورائه تحقيق الفوز. لكن صوته يرن بأذني في مناجاته لأخرى :

- آه! عزيزتي كم أحتاجك!

هكذا كان القلب عازما على نيل مبتغـاه وامتزجت ابتسامة ساخرة بتنهيدة حزينة. . . فأبتسم:

- كلُّ النساء يحتاجها، فأين مكاني ؟!

من جديد تنقسم السماء، تتزلزل الأرض، تنتفض البراكين، تسقط الأشجار، تغرد الطيور، تولول الطبـيعة، تصرخ تبكي، تحزن، إلا القلب فإنَّه تسمر في مكانه، وتجمد العقل رافضا طبيعة ما حدث كلاً

من جديد بعد المصافحة والعفو... يكون الغدر و الخداع ، وتظل الطبيعة في حزنها والأحلام في تفتتها، لكن ذا القلب يقبع في مكانه ثم ينظر للعقل متسائلا: ما رأيك؟ ألم أحذرك؟ ألم أقل لك توقف عن التسامح؟... فذا عالم لا يعرف للصدق مكانا ولا للأحلام مجالا، إنه عالم يقتل الأماني، يحطم العزيمة. أسترق السمع فإذا المخدع ليس لي وما خلقت له، أعاود التثبت، فإذا هي أذرع اعتادت احتضان الكثير والكثير... وما عساني أفعل سوى إرسال ابتسامة ساخرة إلى القدر. وتلك الأماني التافهة، أنظر حولي فأرى الكتب تنتظرني و العمل يستبطئني، إنه جنون ما بعده جنون، أن أترك ذاتي تبحر في مرسى الآمال والأحلام ولا أفيق من غفوتي اللامتناهية.

و تمر الليالى طوالا، بصمتها وكآبتها، تمر الأيام تجرف وراءها الأيام... محملة بالأحلام تتبعها الأحلام... وأسرع خُطاي هناك لمعرفة نتيجة امتحاناتي الأخيرة... أخيرا انتصر.

نعم أنتصر في أول خُطَى أحلامي وأمانيٍّ ويغمرني شعور كمن ملك العالم بأسره، فكأنني نجم الثريا يعلو إلى فوق، لكأنني بحر كل قطرة فيه هى أمن وسلام، هى أنا، ترفل في غياهب الأدغال لترويها جنانا ورياحين... ثم... أَحِنُّ إلى أن أرتمي بين ذراعيه، أن يشاركني فرحتي و انتصاري.

و في لحظة نسيت حقدي كله واعتقدت بأنني كنت ولا أزال

الحلم الجميل لديه. وكدت أطرق بابه . . .لكن كيف أمضي في نهج كان بالأمس أعمق أحزاني وآلامي؟

الآن وقد صار طريقنا مختلفا تماما كلا، لن تخر عزيمتي، سأمضي بكل قوتي دون أن تثبطني ذكرياته للوراء. . . لم يمض سوى بعض الوقت على بداية الانتصار الصغير، حتى وجدتني أسير، أسير بسرعة كأنني أستعجل أمرا مهما، فلطالما سرت في الطرقات والشوارع بخطى بطيئة، الآن على التو أعدو، فحتما لا شيء يظل على حاله، كل شيء متغير. . السماء وزرقتها، السحب وتلبدها. السكون، نعم ! السكون يتحول إلى صخب و ضوضاء، وتتحول مشاعري وعواطفي ويصبح صمتي كلاما، يصبح همسي ألحانا تنبعث هنا وهناك. . .

أخيرا وجدتني في مقهى لم أعتد من قبل دخوله وحدي، دخلت. رحت أنظر حولي كمن يكتشف المكان لأول مرة. ووجدتني أمسك قلما وورقة. . مر زمن دون أن أخط حرفا، مر زمن دون أن أسير بمفردي، بيد أنني استمعت كثيرا، حتى تحررت مشاعري وأفكاري من كل قيد ورحت أكتب:

احتضنت وجنتيك

بكفي

وددت لو طوقتك

بيدي

فنظراتك ذوبت الثلج

من عيـنـي

كلماتك أضحكتني

ثم أبكتــني. . .

وهذا الجسم الهـزيل المقـعد

وهذا الحلم الجـميل المبـعد

تـاها أمـام إصراري

بأنك شيء جـمــيل

رائـــــع

وبأن حـــــــزني عظـيم

شائـــــع

حينها لملمت جـراحي

وسرت في درب المجـهـــول . . . .

أتممت الكتـابة، ثم أرسلت ضـحكات هزت المـكان كله وجلبت أنظار الجـميع، لم أعـبأ بأحـد كـما لم أشـرب القهـوة التي بردت أمامي.

وانطلقت. . .

رحل كل شيء في صـمت، الـشـتـاء رحل. . . جـاء الربيع في صمت، فـي صمت تتـمايل ورقات الأشـجار، في صــمت تتكور البطون ثم تتلاشى، في صمت تصفـو السماء ثم تتلبد، في صمت

تزهر الأحلام وتتبخر، في صمت تتلون الأماني...

وفي صمت يصبح السواد بياضا وينمو..

في صمت تمر الأيام وترحل، وفي صمت تتجعد قسمات الوجه، وترتجف الأطراف...

كل شيء عمَّــه الصمـــــــــت.

فذات صباح نهضت على صراخ أطفال ينادون أمي ،

وذات مساء صفق جمع كبير عندما أسمعتهم ما كتبت ،

وذات عشي تصفحت دفاتر أيام مضت..

ذات عـشي مـرح أطـفـالي هنا وهناك وقـد قـــرأت لهم بعض القصص..

وذات مساء تبعثرت ذاكرتي على أوراق الزمن...

ذات صـبح... امتـزجت الأحـزان بالأفراح و تزاوجَ الطمـوح بالإرادة... فكان لي الاحتواء تارة والغفو تارة أخرى..



وتتوه المشاعر أحيانا...

❖ ❖ ❖

- متى ستزيحين عني هذا العناء والشقاء،

- لكن يا أمي أنت دائما سعيدة، فلم أرك يوما تئنين.

- نعم، يا ابنتي فإن تضمرت.. فمن سيضمّنا إلى صدره ؟

فالأحرى أن تدرسي أكثر يا "نـــور"

- لقد مللت نفس الملابس المرتقة والحذاء البالي.

... تصــمت "أم نور" .. عــسى في يــوم مــا تتــحــقق بعض الأحلام.

لقد أخرجت الأرض كل مـا في جوفها حـتى بات الاخضرار يعمّ كل الأمكنة... هنا وهناك رقعٌ مـزركشـة... ملوّنة... حقّـا لهى جنان على البســيطة و أنغام الموسيقى المنبـعثة من الطّيور والـشحارير تزيدها بهاء وروعة.

الجداول تنهمر يمنة ويسرة قبل أن تصل إلى مـدينتها المميّزة بغاباتها و أشجارها الشامخة. وعـيونها المنسابة على الهضاب... ثم تنصب الأحياء ملقاة على الجـبال وقد سترت المنازل بالقرمـود الأحمر القاني

حتى تختفي من ثلوج الشتاء وبرده. . .

عبرت هذه المسالك التي بدت لي الواحا زيتـية رائعة لمبدع أوحد. وأنا كُلي شغف لرؤية "أم نـور" و الاستمتـاع بمنعش الرَوح و التلذذ به. . . هناك حين بـلغت حـينا، كـأنَ الصـمت قـد اكـتـسح كلَ الأمكنـة. . . على غـيـر عـادته . . . كل شيء راكـن للهـدوء والسكينة. . . كانت عـيناي تبحثـان عنها. . . و أنا أستـرق السمع، علني أسـمع صـوتها. «شـاي. . .شـاي»، وبسـرعة رحت نـاحيـة مسكنها. في آخر الحي. . .

دفعت الباب الذي لم يكن مغلقا . . . جلت ببـصري: غرفة صغيرة مرتبـة كانت في الجـانب الأيمن أريكة وبمقربـة منها منضـدة رصَفت عليها بعض الكتب بكلَ عناية و انتظام. . . " هي كتب "نور" إذن.

بقيت أمـعن النظر في هذا البيت الذي ظلَ سنين الرُكن المجـهول الذي لا تطأه قدم رغم أن صاحبتـه تدخل جميع المنازل الأخرى. . . بغتـة لمحتهـا تلج الفراش. كـان السرير في الجانب الأيـسر من تلك الغـرفة، عليـه ملاءة رثة، كـانت مسلمـة كلَ شيء، فقط الأنـفاس تخرج منها بانتظام: تقدَمت منها وهمست :

"أم نور، ما بك؟ هل أنت بخير ؟"

ففتحت عينيها بمشـقة وعناء كبيرين دون أن تنبس ببنت شفة . . . ثم أعادت إغماضهما من جديد.

. . . ران الصمت. . . و اغتمَت النَفَـس . . . حتى باتت الغيوم المدلهـمَـة تجتـاح ربوعي . . غـمـرني حنين بلا حـدود. . سحـبت الكرسيَ بحـذر وجلسـت حذوها، وراح الـفكر يسـبح في الأمس، يدغدغ الماضي ببهجة، يعانق الرؤى

- شاي، شاي - أخضر، أحمر، بالنعناع" . . .

كل صبـاح يعجَ صوتها أركان الحي و هى تنادي وتصـرخ بصوت حاد : " شاي. . . شاي" تسكب شايها لكلَ فرد، ثمَّ تضع وريقات النعناع اليانعة، وبابتـسامة مشرقة تضـيف : "صحَ، بالشفاء ولدي، . . . " كل المحيطين بها هم أبناؤها مهما اختلفت الأعمار : "عساها تشعر أنها أم الجميع" .

هى : "أم نور" تجـوب الشوارع والأزقـة وإبريق الشـاي و سطل الماء وكذلك وريقات النعناع بين يديها. . .

. . . منذ سنوات تمضـي وتختـلف دون كلل أو ملل، وأين لهـا الملل وهي التي تبعث الأملَ المتجدَد في سكان الحي، بل الأحياء كلَها شرقا وغربا . . . أذكر أنَّ الحاج عمَّار ذات يوم داعبها :

- - " ألا تمرضين ؟ ألا تتعبين. . أريحي جسدك" .

فأجابته : " - " إن مرض الأيل فمن يرعاه ؟ "

ثمَّ مضت . . . هى طويلة القامة قويَة البنيـة، سمراء البشرة، لها عـينان سوداوان واسـعـتان، ذات نظرة حـادة، بيـد أنَي لطالما لمحت وراءهما حزنا عميقا.

. . . سنوات وهي تقطن حيًّا. . . أذكر يوم لجأت إلينا. . . كانت تحمل بين ضلوعها رضيعة هشة وضعيفة جدًا، لكنها شديدة البياض، حتى أنَّ "عثمان" العمدة قال يومها:

- ما شاء الله، ما شاء الله، ما هذا النور المنبعث منها ؟

فقاطعته "فضيلة" زوجته:

- فلتكن "نور" ما رأيكم؟

رمقتها الأمُّ و بمرارة ممضة همست: "نور الهدى".

. . . عاشت "أم نور" وابنتها سنوات. تعبر الأزقَّة كلَّها. . . تسكب شايها اللَّذيذ وكأنَّه منعش الرَوح. . .

ثمَّ. . . هي كانت تغيب بعض السويعات ترضع ابنتها وتهتمُّ بها ثمَ. . . باتت تجلس القرفصاء جاثية على ركبتيها أمام الشيخ "إبراهيم" و هو يعلم الأطفال وابنتها القرآن. . .

و حين تخرج "نور" تضمها إليها طويلا، ثمَّ تدخلان ذاك البيت في الركن البعيد من الحي.

كبرت "نور الهدى" واكتسحت مجالس العلم و المدارس مع أبناء "عثمان" العمدة والذي ظل يغدق عليها بما تجود يداه. . . حتى تكبر "نور" ويتشكَل الحلم المؤجَّل. . .

هي. . . هاهنا تجوب الطرقات والشوارع، فقط هو ما ورثته عن أمها، تجوب الشوارع في العاصمة ترسل ضحكات مدوية مع صويحباتها. فيفوح عطرها يمنة ويسرة، إذ لا يعقل أن تضع ما هو

دون أرقى العطور وأثمنها... و لاترتدي سوى الملابس "الموضة" وكانت صويحباتها يحسدنها... ذات مساء هطلت الأمطار بغزارة وهبت الرِّياح بكلِّ قوّة وعنف... كانت ليلة موحشة جذبت "منى" صديقتها "نور" جانبا ورجتها بصوت مرتجف:

- أرجوك "نور" رافقيني إلى منزلنا لقد تأخرت

فأجابتها بسخرية - هل مازلت رضيعة؟، ألا تريني أنِّي منشغلة ؟

إذن... لم تعد "نور" تهتم بالمشاعر و لابالأحاسيس، وغدت الحياة لهوا ومزاحا، حتى مدارج العلم فقد غادرتها منذ عدة أشهر... وفي قرارة نفسها: "لن تسمح لأيِّ شيء بأن يؤخرها للزمن الماضي"...

مضت تختلف بين الأزقة والأنهج: تدخل مقهى ... لتغادره متأبطة ذراع رجل وقور مكوَّر البطن تقضي معه بعض الزَّمن ثمَّ تتركه ولربَّما يلفظها لتبحث عن غيره... الأهم... هو بعض الأموال والملابس فلا ضيم...

ذات عشية تلقَت تلغرافا "والدتك تحتضر" ابتسمت بسخرية، ثمَّ مزَّقت الورقة ورفستها بقدميها وسارت...

الآن يبيت كلُّ العالم في مخيلتها هى "الكون المصير" لقد ارتدت الثياب الفاخرة والجواهر الثمينة، لقد صعدت أفخر السيَّارات وعاشت أيَاما بأجمل القصور. ثمَّ ... ماذا ؟

لم يجُلْ بفكرها مجرد التفكير في : ماذا بعد؟

هى محت كـل ما يصلها بذلك الـشق من العالم: بائعـة الشاي، العمدة، إبراهيم الشيخ، الحي، لا أحد سوى مـلامسة عالمها الجميل الرائع...

ارتسم الماضي والحـاضر أمـام عـينيَّ: "أم نور" و«نور»... ترى مـاذا سأروي لهـا عن ابنتهـا؟ هى تنتظر عـودتها بفـارغ الصَبـر منذ سنوات خلت... الآن تشقى لبـعد فلذة كبدها و طول غـيابها... فما سيعتريها لو علمت... ؟

صرخت من أعماقي: كلاَّ فلتبق على أمل ملاقاة ابنتها".

... لم يدم أنين "أم نور" وألمها طويلا... فـحين شاء القدر أن تحطَّ رحـالهـا بين غرباء أصـبـحوا هـم عونا وسندا لهـا في السـراء والضرَّاء... وفي المشفى التقت رجلا وقـورا يبدو عليه ملامح الغناء والجاه... و ظلَّ يعـتني بها... وذات مسـاء عندما رحت لعيـادتها تنامى إلى مسمعي صوتها وهى تقول:

لا أخـالك تشفق عـليَّ وتشعـر بي؟ الآن وبعـد هذه السنين، ثمَّ صمتت قليلا واستطردت:

- سأبيع الشاي، ودينك سأعيده إليك.

فأجابها الرجل برجاء وإلحاح:

أرجوك "ضـحى"، كفى عن تعذيبي. يـكفيني ما لقـيته حـينما اخـتفـيت وبين أحشـائك طفلنا. ألا تذكـرين الأيام السـعيـدة التي أمضيناها؟ إنَّكِ رحلتي وتركتيني أتجرَّعُ الحزن والنَّدم...

و تصرخ ضحى: "- كفَ عن مواصلة تعذيبي. "كامل".

إذن هو «كامل» والد «نور» السر الذى ظل دفيناً.

هذا الذي احتار، وتردد بين تلبيَة نداء واجبه تجاه والديه اللَذين رفضا زواجه من "ضحى" المرأة الرِّيفية، و بين تلبية نداء ضميره زوجته وطفله المنتظر... وبين حيرته و عجزه اللذين كانا يغمرانه اختفت "ضحى" وبين يديها طفلة دون اسمَ ودون أب مسؤول... وخاضت معترك الحياة...

... "ضحى" أو "أم نور" السر الدَّفين... ظلَ صامتا مختفيا وراء أسوار الشوارع والطرقات...

ولأن الزمن كفيل بمحو الآلام والأحزان... ولأنَّ الإنسان ينعم بنعمة النسيان و التسامح خير ما يخالج الوجدان... مضت "ضحى" وصوتها يدوِّي كل صباح:

- شاي... شاي - أحمر أخضر بالنعناع...

ومضى "كامل" في دروبه يبحث عن ابنته الوحيدة: "نور الهدى" في الشوارع والأنهج، عساه يلقاها ذات ليل دامس أو فجر بازغ، عسى الجرح يلتئم يوما...

❖ ❖ ❖

الحالمة

❖ ❖ ❖

تململ وتمطط في الفراش. . . مدَّ ساقيه ثم استدار الناحية الأخرى بعد أن جـذب إليه الأغطية كلـها، وراح يغط في نوم عمـيق ، كان يصدر حـشرجة عنيـفة ، كانت أنفاسـه تخرج وترجع إليه مـصدرة صفيرا قويا بينما نهضت هى، سكبت بعض الأدمع . غسلت وجهها وأطرافهـا ثم عادت و تمددت بجـانبـــــــــــــــه . . ثم غاب كل شيء عن الوجود.

هذا الجسد الهـزيل الملقى على الفراش . يتضور شـوقا وحنينا ، تغمره رعشة طفيفة ثم تكتـسحه تماما حتى يبيت يرتعش . نعم كانت تتضور عـشقا لجانبـه حد الشهوة، كانت تتـلوى ، وحده الموت كان ملقى بجانبها . . . شيـئا فشيئا ترحل خيالاتهـا تبحر في عالم آخر، شرع النداء من أعماقـها ينسج رسوما ومشاهد متـباينة عساها تكمل الفجوة العميقة وتلحمهـــــا .

في البدء كانت النشوة توشك ملامستها، تكاد تعانقها، بيد أن القنوط صار الملاذ لحيرتها، وليأسها عظيم الوقع فى نفسها. لربما اعتادت الأكل دون لذة، لربما اعتادت الصمت دون الكلام ! لكن صراخ جسدها المحموم باللذة يبيت يتعالى كل ليلة ولا ينفك . فترحل خيالاتها بلا أشرعة وتهرب طمأنينة وجدها وتحل الحيرة محلها معرشة:

- تراه قدرها قد كبلها ؟

رفض صارخ يعلن اختيارها اللامعقول لما حل بها . نعم لقد اختارته وسطرته مسلكا في ربوع مساربها . كانت جامعية تدرس اللغة الانجليزية... كانت رقيقة إلى حد الرهافة... كانت حالمة... وكان تاجرا أنيقا، جذابا بدا لها رومانسيا .. لطالما حملها إلى أعالي الجبال حتى بدا الكون يقبع تحت قدميها، هكذا رفل وجدانها بعيدا ينشد لحن الوفاء إليه ...ثم باتت تدرس هذه اللغة وتعتليها... فرس جامح يمسك بلجامها حتى عانق مسارها... وانكتب قدرا في دروبها ... هو قدرها، إذن أن تدرس اللغة الأنجليزية؛ فبها مرتع لأحلامها المتوالدة باستمرار. ... طالت سويعات الليلة وتمططت، ككل ليلة تتصفح حاضرها ثم تخمد الوهيجة بداخلها. إن اعتدال لن تفكر في الغد :أتراه مختلفا؟ هى ككل النساء قد ملكت زوجا ثريا

وبنتين جميلتين . . هـي ككل النساء قد ملكت منزلا فخمـا وسيارة فخمة . . . . هـي ككل النساء تزين وجهها بألوان زاهية مـتناسقة مع ملابسها الغالية . . . و يفـوح عطرها المستورد، وترتسم البسمة على محـياها ككل النسـاء . . . وهى ليست كبـاقي النساء تهـوى الهدايا والباقات الرفـيعة الثمن . هى ليـست كباقي النساء تهـوى السيارات الفاخرة و لا . . . . ولا . . . . . فقط هى متعـطشة لضمة صدر قوية . . . هي متلهـفة لزوج يداعب أطراف جسدها، يتـحسسه، يتـذوقه حتى تتـصاعد رائـحته حين يدغـدغ أنوثتها . . . هى تحـن للغابات الوفيـرة الأشجار كغـابات عين دراهم، و تحن أذنيها إلى خـرير المياه المنسـابة من أعلى الجـبـال إلى القـاعدة فـي انعراجـات والتـواءات مـتناسـقـة، فتـنحدر تـارة في تدفق، وتارة أخـرى تصطدم ببـعض الصخور فتتفتت إلى أجزاء لامتناهية . . . ثم تراها تجري متسللة بين الأشجار، ويلاحقها زوجها تماما كالأطفال، وعندما يدنو منها يجذبها إليه في حنو ثم يوشوش في أذنيـها : أحبك فتبتـسم، وتسأل : ماذا قلت ؟ فيـعيد إقـراره بصوت خافت: أحـبك، وتعيد سـؤاله عديد المرات: «مـاذا قلت»؟ فـيصـرخ كمـن يود إخبـار العـالم بأسـره: «أحبك».

. . . مضـى من الليل ثلثه وهى تتـضور وهو ينام بـهدوء . . . .

تماما همـا كزوجين محظوظين لايشـغل بالهما شـراء حذاء لطفل ولا اقتـناء كراس لتلك، لكنهـا لم تكن هانئة الـبال، كانت حـالمة . . . وكان واقعـيا، وهو ما تقتضـيه الحياة، يصحـو باكرا . . يفطر ويغادر لعمله، وكـذلك تصحو هى باكرا . . تسـاعد طفلتيها وتغـادر للعمل . . . هى تعود قـبله لاحتضان ابنتـيها، كـانت تخشى وقوعهـما في فجوة المشاعر مثلها . . . حين تنتصب الرسوم أمامها يتضاعف الخوف بداخلها : لربما يعـود الماضي فيطوق ابنتيهـا . . . هى تخشى الماضي حد الرعب . . حد الفجيعة . . فينبعث الصوت بداخلها ، صوت حاد عنيف متعجرف . . لكنه صوت امرأة تقول :

- عـولي على نفـسك وأعـدي فطورك، أنا لا وقت لديَّ . ربما صوت أمـها . . ربما صوت يأمرها بتـحمل المسؤولية . عـساه يرغب تعـويدها علـى الصـرامـة والنشـاط في آن! لكـنهـا كـانت حـالمة . . . فتراها تحلم برسوم مختلفـــة :

- هيا عزيزتي انهضي لقد اقتـرب موعد دراستك . وتفتح النوافذ حتى تعم الغرفـة أشعة الشمس الساطعـة، وتنبعث زقزقة العصـافير فتلفح خدها نسمات الصباح . . تتثاب ثم تقبل أمها . . . لم تكن أمها تغادر المنزل إلا لقـضاء شؤونها الخـاصة، زيارة تلك أو هذه . . . لم تكن تعـمل، لكنهـا لم تكن تظفـر بالوقت الـكافي لتطبخ لأبنائهـا

الستة، ولاحتى الوقت لتنظيف المنزل، كـانت تغدق مصروف العائلة على ملابسها، يجب أن تكون أنيقة :

- «يكفـيني انني أفنيت شـبابي مع رجل يكـبرني خـمس عشـرة سنة!». . .

لربما لها جـانب من الصحـة في تصرفاتهـا، لكن ابنتهـا الكبرى كانت حاملة.



غوص في

عين المجهول

٭ ٭ ٭

فـجأة بعـد الحـرارة المرتفعـة، وبعـد العرق المتـصـبب بدأ الريح يصـفّر. . . يصـدر إنذارا يتـبـعه ومـيض البـرق، وفي لحظة راحت الأمطار تهطل بـغزارة بـينمـا كانـت هى تسـيـر بخطى ثابتـة واتزان لامتناهيين، لم تعبأ بقطرات الماء، ولا بأن مـلابسها قد تبللت، فكل ما كان يعنيها وحسب هو أن تصل في الوقت المحدد دون تأخير. . .

كانت تتنقل بجـسدها النحيل من زقاق لآخـر، وبين يديها بعض الأوراق التي لا تستطيع المضي إلى مكان دون أن تصحـبها. كان في صدرها شغف واحـساس بأن هذه الأيام القليلة تخبيء لها شيـئا ما، فمنـذ يومين تلقت دعوة لحـضور "عرس الـكلمة "، ومع اطلاعـها على الدعوة تلك، حملت بين ضلوعها رغبة جامحة بأن يحدث شيئا ما. . . .

أخيرا بـلغت المكان المنشود وكالمعتـاد راحت تحيي من سبقـها من الحضور، وخاصة الذين تجمع بينهم مـودة سابقة ولقاءات متعددة في

مثل هذه الاحتفالات. . . انضم الجمع تحت وقع كلمات رنانة موزونة وراح كل واحد يعرض رسمه الذي اختار بأسلوبه وصوته هو. . .

بينما ظلت هى في مكان، ترقب هذا وتسمع ذاك وتتأمل جسم آخر. . . وكلما مر الوقت يتضاءل بداخلها فضول لتعرف من أين جاء شعورها الغريب. في تلك الأثناء قررت أنها لن تعود إلى المنزل؛ بل ستنضم إليهم وتمضي الليلة معهم، فكثرة انعزالها بدأ يدغدغ حنينها إلى سنوات مضت. . .

المهم. . . أمضت الليلة مع بعض الأصدقاء والصديقات يذكرون نوادر جمعتهم في لقاءاتهم الأولى، والضحكات تعلو تارة وتغيب تارة أخرى. . . " لقد أصبحنا الواحدة صباحا، معذرة أود أن أنام. إلى الغد. . "انسحبت بهدوء متوهمة أنها ستنام وتريح جسدها الذي بات اليوم لا يحتمل السهر كما في الماضي، لكن صديقة لها رافقتها إلى الغرفة، وبينما همت الصديقة بفتح باب الغرفة إذ سمعتا صوتا: " هل ستنامين؟" استدارت وراءها لتجد رجلين يتبعانهما، ثم شرعت الصديقة تعرف صاحب الصوت بيد أنها عرفت الآخر الصامت، قاطعته عندما سألها: " هل تعرفين من أنا؟ " "طبعا أنت. . . "

ثم عاد الرجلان وبسرعة لحقت بهما الصديقة لتكمل السهر معهما، بينما دخلت هى الغرفة في هدوء وسكينة تامين. . مرت

ساعة.. ساعتان.. ثلاث، وهي تتقلب في الفراش، كانت صورا ترتسم أمامها وكلاما منسوجا بحبكة يصدر منها حتى علا صوت المؤذن " الله أكبر " لكنها لم تنم حتى بعد أن دخلت الصديقة، و التي غطَّت في نوم عميق، ظلت هي مع لوحات مختلفة الألوان تنتقل حتى أشاع لها الصباح بنوره...

...عند الصباح أسرعت بتنظيم هيئتها.. ضمت الأوراق إلى صدرها... كان شغفها قد تضاءل أكثر لتنضم إلى المجموعة وتواصل الاستماع و التأمل... دخلت القاعة الواسعة أجالت ببصرها أركانها الأربعة، حتى لمحته مرة أخرى يتوسط المنصة الشرفية، ودون أن تنتبه جلست قبالته و راحت تتأمله: حذاءه، سرواله، قميصه، شعره شديد السواد، ثم عينيه... حاجبيه الكثيفين، تنهدت قائلة في همس: آه! هاتان العينان وهذه النظرة الحادة ما عساهما تخفي؟

لقد التقت به منذ سنوات خلت دون أن يراها، ظلت تراه بل ترى صورته، تقرأ نصه أسبوعيا دون أن تتخلف عن موعد لصدور تلك الصحيفة. فمنذ سنوات حينما التقت صورته تأملته وشعرت بإحساس غير مألوف... شدتها نظراته تلك، وكأنه قد طبع في خيالها تقاسيم وجهه ونظراته الغريبة و... ها هو أخيرا يجلس أمامها بنفس النظرات، وهي ترمقه باحثة عن جواب لسؤال طالما حيرَّها " ترى

كيف هو و ما تخفى عيناه تلك؟ "

فجـأة التقت العينان. انتـبه إليهـا. تلعثم. أبعـد نظره عنها، ثم أعاده، هى ماتزال تتأمله، لن تزيح نظرها عنه، تلعثم مرة أخرى بدا الارتباك علـيه، أخذ كـأس الماء. تناوله كله. ابتســمت هى ابتســامة خفيـفة، راح يتجول ببصـره في القاعة، ومن حين لآخر يعـود إليها يرمقها مستفسرا. وهى ترقبه باحثة عن معنى لبريق عينيه..

مرت سـاعات، توقف الاجتمـاع لبعض الوقت. خرج الجـميع. تباطأت هى في الخـروج... الجميع يتناول فطوره، يبتـسم، يتحدث يروي... سواها قد التهمها الصمـت التهاما حتى أنها آخر من غادر المطعم وأقل من أكل، وكل ما كان يدفـعها هى الرغبة في مـعرفته، في دراسة نظراته تلك: " يجب أن أفهم معنى حدة نظره ذلك ".

وفي الأثناء رافقت بعـض الأصدقاء إلى مـقهى ليتـواصل الحوار بينهم. دخلت المقـهى. نظرت إلى كل ركن كـمن يبـحث عن شيء أضاعه... كان العدد في ازدياد متـواصل... اشتد النقاش وتحمس الجـميع، ارتفـعت قهـقهـاتهم.. علت. اسـتدار بعض الموجـودين إليهم.... تواصلت الطلبات: قهوة-شاي-كولا-ماء-..فقهوة...

إلا هى لم تبتسـم. لم تشرب. بل لم تواصل القهوة التي طلبـتها أخـرجت ديوان شعـر وراحت تقـرأه دون تركيـز كـأنه مجـرد شيء يشغلها.

. . . . ظلت تبـحث عنه " ترى هل سـيـأتي إلى هذا المكان؟ " أحست كأن المكان قذر لايليق به وبشخصـه . . . فجأة استدار الجميع ونهض البـعض . . . سارعـوا بالتحيـة " من؟أهو حقـا؟ " عند ذاك تمنت لو ينضم إليهم . . لكنه انزوى هناك بعيدا، أخرج قلما وورقة و راح يكتب، التهمته بعينيها وقـد نسيت من معها . . . سافرت روحها إليـه، لم تعبـأ بملاحظة صديقـة لهـا : «نحن هنا» انضم إليهم أحـد الأصدقاء فمنع عنهـا رؤياه ودَّت لو صفعته، أحسته حـاجزا بينهما، رفع هو رأسـه . ابتسم إليـها ثم غـمزها فـسبحـت روحها في بـحر غمـوض نظراته . . . . كانت ودون أن تشـعر تتـأمله . . . تراقب كل حركة، فـتتمايل إذا عجـزت لفترة وجيزة عـن رؤيته . . . تبحث عن منفذ صغير يسمح لها بتأمله . .

تكررت أغنيـة في ذاكرتهـا " كـان هنا جالسـا، ودون أن يراني ويعرف الشـوق الذي اعتراني غـاب في الزحام . . . " ردَّدت لنفســها هذه الكلمات ثم صرخت "لا" سألهـا أحد الأصدقاء : " ما بك؟ " فأجابت : لا شيء، فـقط أفكر في كتابة قصـة خامرتني " ربت على كـتفـها وبقـيت هي تتصـارع مع أفكارها اللامـتناهية، انفلت حـبل أفكارها، وانفلتت مـعه رغبـاتها الجامـحة بأنها يجب أن تعـرفه، أن تكلمه، أن تقرأ عينيه . . ورحل ذهنها إلى اللامعقول . . . .

في فصل الصيف وقت القيلولة ينقلب الطقس . . . فيصبح الوهج

نسمات تلفح الخدود، تعتري السماء غشاوة عابرة... تتمايل أوراق الأشجار... تختفي الشمس خلف السحب، من حين لآخر يتغير الحر إلى برودة، تنزل قطرات المطر، قطرة قطرة على وجنتيها. تبللها. كأنها تنبيء باقتراب موعد مغادرة المقهى وهى لاتزال تتأمله:

ها هو يضع القلم.. يلف أوراقه.. يضعها في محفظته، ينادي النادل يعطيه ثمن قهوته، ثم ينهض. يتمايل في مشيته كأنه الطاووس، يمر ويمضي. تنسى هى كل الأصدقاء. تسير خلفه. تتبعه. يعترض سبيلها أحد الأصدقاء. تعتذر ثم تسرع لتلحق به، يصل إلى مقر الاجتماع. هذه لحظة الوداع. تكاد تختنق في الطريق، وبكل ما أوتيت من قوة و عزم تناديه. يلتفت. تطلب منه العنوان. يمدها به ويمضي...

أخيرا تدخل القاعة التي غادرتها منذ سويعات. تجلس في أقرب مقعد للباب، تلقى بجسدها على المقعد كمن انتهى للتو من سباق...

تتنفس الصعداء: أخيرا ستتمكن من قراءة لغز طالما حيَّرها، أخيرا ستتوصل إلى فهم نظراته تلك.. و بينما سافر فكرها إلى غد لربما نسجته بخيالاتها اللامعقولة، تقدم هو وجلس بقربها قائلا:

- لقد لمحت نظراتك ترصدني، هل تعرفينني؟

- طبعا، منذ عدة سنوات.

- هل انتظرك بعد الاجتماع لنشرب قهوة معا؟

- حسنا لا بأس.

استـأذن منها ثم انتصب في المنصـة الشرفيـة و هي لاتزال تتأمل بريق عينيـه. . . وبسرعة انتـهى كل شيء، بدأ الجمـيع يغادر المكان، فـودعت بعضـهم. لمحـته ينتظرها. تخـلصت من بعض الأصدقـاء ورافقته.

قال لها: هيًّا سأطلعك على أجمل مكان اختلي به مع نفسي.

كانت الأحداث تمضي بسرعـة لا توصف، وكأن القدر عازم على تحقيق ما انتظرته طويلا، همـست لنفسها: «في هذه اللحظات القليلة أخيرا سأقرأ عينيه». .

بدأ الرذاذ ينزل. هبَّت نسمة خفيفة. أقلا سيارة أجرة " تاكسي " صعدت، وفـي صمت راحت تستمع حـوارا دار بينه و بين السائق، راق لها حـديثه وأعجبـتها أفكاره: " تماما كـما عهدته في كـتاباته، وصلا أخيرا نزلت و هي عاجزة عن اسـتيعاب ما يجري " . . . . كان يمضي بقربها في طريق واحد أوحد.

سأل: لماذا لا تتكلمين؟

أجابته: وماذا أقول؟ كنتما تتحاوران معا وأنا أستمع.

قال: أتحبين الاستماع فقط؟

أجابته: طبعا ، لا

سألها: و ماذا أيضا؟

قالت: وأن أقرأ عينيك. . .

قال: كيف؟؟

قالت: نعم لطالما قرأت أفكارك، ولكن كلما نظرت إلى وجهك لم أفهم لغة عينيك.

ابتسم وقال: حسنا ! ستعرفينني أكثر، فتلك بعض أفكاري وحسب. واصلا الطريق بحوار روتيني، فتحدثا عن العمل، الدراسة، الحياة. . . و لما بلغا زقاقا أشار إليها لأن تدخل، فأخرج جملة من المفاتيح. . . هى بين أوراق متناثرة هنا وهناك دواوين شعر، دراسات تاريخية، فلسفية، مجلدات، كتب مرصفة بكل عناية، أدخلها مكتبه وراح يجلب لها مشروبا بينما ظلت هى تنتقل بين الكتب وحالما عاد سألته:

أقرأت كل هذه الكتب؟ أجابها بفخر و اعتزاز: " طبعا وكذلك أنجزت دراسات حولها "

قدم إليها المشروب، أخذت الكأس من يديه ووضعته على المكتب، ثم راحت تتأمل الكتب والمجلدات ثم. . فجأة لمع بريق عينيه حينما التقت العينان، أحسَّت نفسها ترتفع فوقا، تغزو الفيافي، تنهل من بحر لا ينضب، تقدمت إليه. اقتربت منه. وبكل ما أوتيت من حزم وقوة صرخت: " أريد أن أعرفك أكثر. " ابتسم وراح يجلب

لهـا بعض كـتــاباته، يقـرأ هذه ويعلق علـى أخـرى وانغـمس في مقالاته. . .

أحســت ذاتها بعـيدة أميـالا وأميـالا عنه، كأن السـحب تود أن تحـجب الرؤية عنها، وبخـفة ولـباقـة تناولت الأوراق من بين يديه، وكسارق في بداية محاولاته الأولى اقتربت من أذنيه و وشوشت:

- كفَّ عن تعذيبي، أدن مني، ارسمني نورا في بعض انعراجاتك كما رسمتك وردا في قحط مشاعري.

أجابها: أنت شاعرة؟

قالت: أدنو مني. . أريد أن ألبسك. . .

قال لها: أنت مجنونة.

قالت: إذا أشبعت فضولي فقل ما شئت.

سألها: ماذا تريدين؟

أجابته: أن أحتويك.

و انسجم الجسدان. . . ثم. . . تعـانقت الأرواح. . . تصالحت. شـرعت ترقص تغني. . .تهـمس له: " قـبلني أرجـوك "، وفي كل لحظة يضمـها إليه يغمـرها شعور ليس مـثله شعور، كأنما الصـحراء تغمرها الوديان فترديها جنانا. . .

فجـأة انتفض كـأن عقله صـرخ بداخله، حاول الابـتعاد عنـها. فسحت له المجال قليلا وقد توسَّدت ذراعه الأيسر واضعة رأسها على

صدره، بينمـا صمت هو قليلا... وفي لحظة صـمته قـصف الرعد وبدأت قطرات المطر تنزل بكل هدوء... فـصارت تبحث عن عـينيه في الظلمة التي عمّت المكان إلا من البريق المميز ذاك.

بعد ذلك الصمت القـصير ابتسم وهو ينظر إليـها وشرع يروي: " لقد عـرفت سر نظراتـك لي. لقد التقـت أرواحنا سابقـا من خلال قراءاتك لما أكـتب، لقد نما وترعرع ذلـك التعارف بيننا... ومـجرد لقاء أجسادنا كان شعلة توقظ وهج المشاعر المدفونة... قاطعته ببسمة خـفيـفـة: لا أخـالك تفكر بهـذا الأمر.. المهم أريـد أن أفهم سـر نظراتك... وهذه الأمطار... "

حينئذ قال: ما أجملها... أريد أن أسير تحت المطر. أريدها تعانق جسدي، تبلله...

قالت: أمـا أنا فحـققت رغبـتي هذه حينمـا هطلت أول أمس إذ مشيت تحتها لكن... ثم سكتت.

فقاطعها: لكن ماذا؟

فـاسـتطردت: أريـد أن أسـيـر مـعك تحت المطر وأن تـلفني بين أضلعك...

قال بصوت متقطع: حقا؟ وماذا تريدين أيضا؟

قالت: وأن تحتويني..

ثم غابا عن الوجود. سافرا إلى اللامعقول...

هناك، حـــيث لا أمل ولا يأس، هناك حـــيث لا صـــخـر ولا حجـر . . . فقط خرير مـياه ينشد أعـذب الألحان وأرقاها، فـسحب عصافير تعلو وتحط كأنها ترقص أو تصـفق وأشجار تتمايل بوريقاتها الخضراء كأنها معجبة . . . ترنو بألحان الطبيعة الزاهية . . . كانت تسير بخطواتها المعتادة وجسـدها الهزيل المنهك وبين يديها الأوراق التي ما فتئت تصحبها . . .

ها هي تمضي من جديد في دروب الحيـاة وبين ضلوعها يقبع ذاك الفضول وذاك السؤال الـذي لايزال يحيِّرها: «عساه بشر غـير البشر؟» وتلك النظرة. «منهـا نظرة غريـبة " لقـد مدها بعنوانه ورقم هاتفـه، حتما ستتمكن من غزو نظراته تلك . . .

سارت في الطرقات كـثيرا. قطعت عديد المسافـات. التقت عديد الأعين والنظرات حتى صارت بارعة في قراءتها ومنذ الوهلة الأولى.

لكن ذاك الهاجس سكنها حتى أرهقها وأدماها، فذات يوم نهضت باكرا. ارتدت ملابسها وخرجت . .

سارت طويلا. قـادتها قدماها إلـى حيث لا تعلم، الأهم من كل ذلك أنها تسـير وبؤرة الأمل تصـحبهـا، أين تمضي؟ صعـدت المترو والأفكار تقلقهـا. كانت لا تعلم إلى أين، بيد أنهـا تمضي والشوارع تُطْوَى. الأنهج والأزقة تَمرُّ.

همست: ربما لو رحت إلى طبـيب عيون ساعـدني على فهم تلك

ابتسمت ابتسامة ساخرة من ذلك الهمس المقيت، قررت اللجوء إلى أعز وأصدق أصدقائها ألا وهو البحر، أنَّبت نفسها كيف تنساه بينما احتاجته كما لم تحتج أحدا سواه.

بلغته... جلست قبالته... ثم شرعت تنظر إليه في صمت لامتناهي. هتف فؤادها: أنا بَعْشَقْ البَحْرْ زيَّكَ يا حَبِيْبِيْ حبيبي...

غضبت لأن ذاكرتها دائما تخذلها، والآن على التو تخذلها لأنها لا تذكر هذه الترنيمة للبحر. عمَّ المكان السكون، إلا من صخب البحر، إذ كانت أمواجه تعلو. تعلو ثم ترتطم بصخرة تقبع في عرضه فترديها أجزاء الفتات، وتصير زبدا شديد البياض، ملقى على الحافة تحت قدميها، فتمضي في سرحه اللامتناهي. ترحل بفكرها إلى ما لانهاياته، حيث يمتد فيتيه خيالها فيه، عندئذ تهب نسمة خفيفة تداعب جسدها فيطير شعرها الأسود المترامي على كتفيها، تنتفض، تضحك ثم تمضي من جديد...

وتمضي الأيام. تمضي الليالي، تعبر أمامها وهى جالسة بجسدها الذي أصبح ضخما مكورا...

تجلس وبين يديها العنوان الذي مده إليها ورقم الهاتف. تجلس وفي فكرها خيال لايزال يرسم ويرسم.

فجأة رنَّ جرس الهاتف الخلوي: تجيب فتسمع صوتا تعرفه لقد

التـقته منـذ آلاف السنين، تصمت فـيمـا هو يكلمهـا" إنني انتظرت مهـاتفتك طـويلا. لماذا لم تفعلين؟ لقـد لامسـتكِ روحي التي طالما بحثت عنها.

يجب أن أراك، أرجوك، لدي الكثير لأقـوله، لقد لمست صدقكِ وبراءتكِ وجنونك.فأحببتكِ. نعم! إنني مثلك مجنون و أريدك دربي في الجنون.... أتودين معرفة نظراتي؟ لقد كنت تائها أبحث عنك. دثريني بصدق مشاعرك.. هل تسمعين؟ ألو، ألو...

وتظل تصمت فـيما هو يصرخ. ينادي. تضع الهـاتف جانبا... تبتـسم.. ثم تمضي وهى تنشد: عـساه يلملم أشـلائي المترامـية هنا وهناك...

عساه ينتزعني من أحزاني ومأساتي...

❖ ❖ ❖

حـــلـــم

❖ ❖ ❖

ذات عاصفة... خبأت أحزاني بين جنباتي، استعرت من الصبايا بعض الهسهسات... كانت تراتيل المطر دموعاً... تنسكب على الورقة.

كانت ارتجافة طفيفة قد خمّرتني... حتى الانتشاء... تاهت الرسوم مني.. لهثت، بحثت... و كان الصمت نحيبا لا متناهيا. وأريت عويل همسي و سمحت للأحزان أن ترحل... فتسربلت أسئلة دون مسلك، فرحت أضاجع الظاهرة، فانبرى الحلم من قصر شجوني، كان وهاجا متقدا بلا سلاسل... يرفل في ربوعي وبساتيني...

و رأيتني ذات فستان أبيض تكسوه أزهار برية من كل الألوان غنت للطيور.. وكانت الجداول تنساب في رقة و حنو.. و كنت هناك على صخرة آمالي شبحا، وهما وربما سرابا، لكنك انتصبت فوق قمة العتمة نورا يخالجني لحظة التوهان... راح الحس يدغدغني حد الضياع دون عنوان يحملني إليك...

أبحرت فيك ولم أكن أملك أشرعة سوى عزف على أوتار حلم كان مطمس الرسوم.. كانت الريح تبارك مساراتي في الخفاء، فجأة راح شبحك يعلو ويعلو، تأملك جرحي على عجل، فلم تتضح ملامحك...

تنامت البسمات فيّ.. ربما هذا الهذيان يفتقني أحرف بلا معنى؟ سرت أتلمس النور الذي كان على التو يزيح عتمتي... فتشت عن أزهاري فكانت بساتيني بقايا أشجار وأغصان دون جذور...

اشمأز حلمي حد الفراق فطفوت فوق أنين الذاكرة... رأيتني هيكلا ذا سبعة أجنحة...اهتزت نواقيسي فانفجر صدايا يصرخ: " ارحل أنت وهم، أنت ضعف وخضوع " علا صوت ناي خلف جدران الحيرة يعزف دعوة مخملية للرقص خلسة عن وهاد الحقيقة...

سكنت التلال والجبال... غربلت أنّاتي المكتومة و نثرتها مع وهيج الحيرة... فتناثرت الدهشة بقايا أخيلة، امتدت أجنحتي، تمطت، تطاولت فاحتوت كل الدروب، كل المسافات انتفت، كل الأزمنة انتهت...

رأيتني أناجي قلبي المستكين، حطمت ألفاظا من المعاجم العربية:
" لا خنوع، لا أنين، لا نزيف"

ومن جديد حملني الشوق إليك، لم أكن أملك عنوانا... فتسمر

الحنين، وتجمد السؤال: متى أستريح؟

صـار سـؤالا يلهث خلف نـبض الكون الكبـيـر. . . و عـلا ثم علا. . . مـتى أسـتـريح؟ متـى أسـتـريح؟ وامتـد الصراخ. و فـجأة هدهدتني يدي صـبر رهيب لا تبـاغت من فوضى، فوضـاي هزتني والفـجر كـان قد انبلج: " هيـا أفيـقي و اعزفي قـصة أخـرى على هسهسات الحياة الآتية" . . . .

❖ ❖ ❖

السّكين الغواية

❖ ❖ ❖

بدأت الأمطار تهطل بغـزارة... تنزل قطراتهـا في هدوء وسكينة كانت سيّارة الإسعاف تصرخ صراخا مفجعا. وهى تسير

- ترى ماذا حلّ ؟

- إنّ حيّنا دائم الصمّت : فما الخطب ؟

الجمـيع يسرعـون، يهرولون يـتساءلون... لـقد تحوّل الصّـمت الرّهيب إلى جلبة وضوضاء...

كانت الرّيح تعـوي... لقد اكتـسحت الوحشة كل الأفـئدة... الوحشة باتت رهيبة رهيبة... انتفضت وريقات الأشجار... غرّدت الطيّور هاربة جـماعات جـماعات.. .كـأنّه الرّحيل ؟وعويل سـيارة الإسعـاف لم ينقطع... تنامى إلى ذاكـرتها بعض الهـمس من زمن مجهول وهى تقول:

- لاشك أنّك أجمل هديّة أقدمنيها القدر...-

- لا شكّ ؟ بل أكـيد أنا هديّة أروع مـن الرّوعة..أليس كـذلك حبيبتي ؟

فابتـسمت وهى تزف فرحتـها إلى الكون البعيـد هناك... كانت

الوجـوه مذهلة وتائهـة وهي تلمحـها ملقـاة كأشـلاء متـراميـة هنا وهناك. . .

رفعت رأسها مبتسمة وهى تقول للجميع :

- لا تخافوا فمازال في العمر بقية. . .

كانت تنزف حدّ التقيء. . . كان منظرها يثير الاشمئزاز. . .نزفت إذن. سالت دمـاؤها لامست المرآة. . لامـست الأرض. . الحائط. . عانقت دمـاؤها كلّ ما يحـيط بها. . ضخّت كـثيـرا. . لم تع كيف تجرّأت وأخـذت سكينا وغرسته في كـلّ بقعة من جسـدها. . رفعت السّكين من على الطّاولة. ولامس جسدها. . . حين برق السّكين في عينيهـا. تذكّرت ذاك اليوم حينما تأبطت ذارعـه وراحا يجوبان المدينة بأسواقـها المتشعـبة والملتوية. . سوق النّحـاسين، سوق سيدي عـبد السلام. . . سوق سـيدي محرز. . . الأسواق العـتيقة. . . بصخـبها وراوئحهـا. . تسلّلت إلى أنفها رائحة زكـيّة ثم دخلت أعمـاقها. . . تسللت إلى عـروقهـا أخذتهـا الرائحة كلّ مـأخذ، فـرفلت روحـها هناك. . إلى العش الصغير الذي سيجـمع بينهما. . أحست موسيقى تنبعث من أغـوارها. .فتراقصهـا. .تغازل أطراف جسمـها. . لم تقو على الاحتفاظ بتوازنها. . فهمست له :

- الحمد لله أنّك بجانبي.

أجابها بكل ثقة في النفس:

- طبعـا حبيبـتي ولآخر يوم من العمـر. . . التفتـا يمنة ويسرة ثمّ

واصلا السّير بعد أنّ اقتنى لها بعض البخور . . همست له :

- سأضعها في عشنا الصّغير أوّل يوم نجتمع فيه معا" فضغط على يدها الصّغيرة فارتجفت . .

صارا معا كـعصفورين يرسلان تغريدهمـا هناك بعيدا إلى الرّوابي المنتشرة والفسيحة . .

لمع بريق أمامهـا . . . اتّجها صوب بائع الأواني : هما يجـهّزان ما تبقى ليعمّرا بيتهما .

أحسّت أنّ شيـئا ما يناديها يهتف لهـا . . يهمس . والهمس مكمن يقينها، لم تتوان عن دفع ذلك الـنّداء الصّاخب بداخلها . . وبصمت تقدّمت للبائع . . حدّقت بالحقيـبة المملوءة شوكات وملاعق وسكاكين من كلّ الأحجام . . . تركزّ نظرها على هذا السّكين . . ولم تتكلم . . لم تنطق بحرف . . . أحسّها انجذبت لهذه المجموعة فابتاعها لها . . .

اليوم . . ثـلاثة عقود من الزّمـن تمرّ على زواجهـا . . وهي تحدج السّكين بين الفينة والأخرى . . ترمقها كأنّ أمرا ما . . قد يحدث . .

إذن . . رفعت السّكين . . . انغرس في جسمها بعد أنّ ظلّ يلمع من حين لآخـر طوال زمن . . . كـانت تنتقـل في المطبخ يعـمّهـا الأمل وتغـمرها الفـرحة . . . فولـيد" الذي ظلّ همـسهـا الأوحد وحلمـها الجـميل" . . . وليـد الذي غـادرها برهة من الزّمن : يقـبع الآن في مسارات حـياتها . . . لذلك آمنت للزّمن فمـا سلمت" إيناس" فرحة الوليـد وبســـمـة القـدر . تلامس أطيـاف الأمـاني والـغنوة تعـرّش

أحشاءها. . تنتقل عادة بين الحقول الواسعة والروابي الممتدة. . . عادة ترفل في غياهب الأدغال والجبال. . . تلامس الأرض فتلقي بجسدها على الحشائش أو تهرب للبحر. . تجلس سويعات من الزّمن تتأمله. . . إنّه مصدر قوتها وعظمتها. . . بل إنّ الطبيعة بما حوته من زوابع ورعود، من شموس ونجوم تصقل فكرها وتليّنه. . تهدّيء غضبها وثورتها وتبثها عزيمة وقوّة حتّى تواصل مسيرها. . . لقد كانت تغيب كلّ بضعة أشهر ولربّما أيّام بعض السّويعات تستلهم بعض القوّة. . ثمّ تعود حتّى أنّ "وليد" قد تعوّد غيبتها. . .

ذات مساء اندلعت بداخلها المشاعر : تكورت. . . علت . . . نزلت. . تضاربت دون أن تفقه سببا لما انتابها فجأة. . . كانت السّماء صافية الأديم، الأطيار تبحث عن أعشاش تحضن بيضها، والأزهار ترقص لزيارة النّحل إليها فتتمايل بتؤدة. . . كل الفراش يرقص جذلا. . وحتى مياه النّهر كانت تصدر ترانيما تسبّح للخالق. .

إذن هي فرحة الكون تنبعث من الأعماق إلاّها. . . كانت تحتضن غربة وعزلة. . تجهل مأتاهما. . . همست : مابي هذا اليوم (لكأن الأرض تضيق بي).

هي لن تظلّ قابعة في مكانها. .أخذت المفاتيح وغادرت البيت. في البدء فكرّت في معانقة الطّبيعة ملاذا لحيرتها. . لكنّها لا تعلم ما الذي دفعها للاتجاه صوب البحر. . . كانت السيّارة مندفعة. . .هناك لم تتوقف. . .فقط هو طريق طويل أمامها. . . اندفاع

غريب. . . كانت تقضمها الحيرة. . . صدى بداخلها يحثها على المسير. . الجري. . "آه لقد سئمت السير. . " ماذا لو تدغدغ الماضي ؟ انبرت تضحك. . . ولكن لماذا الماضي؟ إنّها لامست ما كان مجهولا. . تبسّمت. . لاح البحر بزرقته الصّافية وهدوئه المستميت. . . لفح خدّها نسيما عليلا. . . تسلّلت إليها الطّمأنينة هدأت من السرعة. . . ثمّ. . . توقفت اختارت مكانا يفصل بين الرّمال المترامية الذهبيّة وأشجار الفلين القابعة غير بعيد عن الشاطيء. .

– حسنا! البحر. . . الرّمال والأشجار الخضراء المورقة. . لكأنّي في جنّة. .

لم تكن هذه المرّة الأولى التي تضاجع فيها "إيناس" البحر والأشجار. . . لكن يختمر بداخلها شعور وهّاج يصرخ كأنها لأوّل مرّة تلتقيه. . وما أبهى اللّقاء الأوّل. . تمارس طقوسها المقدّسة. . حدّ الجنون تمارسها. . تجري. . تبتسم. . تسبح. . وتتأمّل للبعيد. . لكن شعورا ما يجتاحها. . حتّى تفيض الغربة . . امتدّ بصرها لهناك. . يتأمّلها الذي اعتادته طوال زمن. . رحّل بصرها. . ثمّ رويدا رويدا بدأ بصرها يتراجع. . نعم! راح يتأتّى من بعيد. . . يتراجع. . . الأفق حدود البحر. . أمواجه المترنحة بين المدّ والجزر. . ثمّ الرمال. . . هكذا كأنّها تعود من سفرة عميقة إليها. . لربّما . . بغتة التفتت إلى الغابة الملاصقة للبحر. . أشجار مورقة. . ملتفة. . متعانقة. . ثمّ كانا هناك. . عاشقين "هما عاشقان حديثي العهد" . . .

هكذا خمّنت..

.. أخذها الحنين لسنوات مضت...

غمغمت من أغوارها ثم أعادت النّظر إليـهما... لم تكن معتادة التأمّل في حبـيبين...لكنّ إحساسـا ما دفعهـا إلى ذلك.. فسارت إليهما .. بدا لها الهيكلان مألوفين.. نزلت السيّارة. وتقدمت إليهما قليلا. كـانت الرّغبة في تطلّعـهما جامـحة، كحدّ السـيْف.. كانت الرّغبة.بارقة..وكانت الأطراف متشابكة حدّ المتاهات كانت...فجأة تراجعت القهـقري اكتسح الدّم أوصالهـا. ..صعق فكرها..ارتجفت .. ارتجـافة طيـر بللته أمطار غـزيرة؛ بل كـجريح. الآن على التـوّ تنغمس سـهام تفتّـتها... تمزّق أحـشاءها..كانا همـا : " وليد" وأختها..."هما العاشقان" . فـحلمها الجميل الرّائع.. كان وليد. وحلمهـا الّصغيـر الغائر.. كانت أخـتها... تراجـعت.. لم تقدر حمل جثّتـها.. تراجعت كأنّها سكري. لقد تخمّرت بالفـجيعة..بل هى الصّاعقة.

تجمّد فكرها والحرّ مريع.. عادت من حيث أتت عساها أخطأت! عساها توهمت!.

كلا! إنّ ذا القدر قدّم إليـها مصارحة..حقيقـة لقد كشف لها عن غياهب مظلمة كانت تحياهـــــــا.

-ترى منذ متى ؟! ثمّ لماذا ؟ كيف ؟!

اصطدمت الأسـئلة... توالدت... تفـجّرت. والحـقيـقة فـوق

الاحتمال. . لقد كانا جزءيها. . نصفيها : يقتلانها.

انتابها الذهول. . الارتجاف. . الصّقيع. الجليد عمّر وجدانها الذي كان معتمرا. . .

-آه الآن والشمس تقارب الرّحيل؟!

مرّة أخرى تغرس الذاكرة أنيابها فـي جسدها أتراها ضعيفة الآن أم قويّة؟!

لم تشأ للصمت أنّ يتكلم. لم تشأ للحلـم أنّ يتبخّر. . . توجهّت إلى كلّ ركن من البـيت : كل الأركـان كـانت مـرتعـا لذلك الحلم المخـتلف. . . تربّعت الذكريات أمـامـها. . . بدت سـاخرة منهـا. انزعجت. . . حاولت الرّمي بها بعيدا عنهـا. . . فتحت آلة التّسجيل : عـساها تـنزع آلامهـا بالموسـيـقى؟ راحت ترقص. . .ترقص دون هدى. . . وفؤادها ينزف. . . تأجّـجت الحرقة بداخلها. . . اشـتعلت النيّران. . . أرادت أنّ تخمـد البعض منها. . . توجّهت نـاحية المطبخ لتخـرج كأس مـاء بارد. . لربّما يبـرّد الوهيجـة. . لمع ذلك السكّين أمامها. . شيء ما بداخلها يهـتف : أسكب أملك فيهم. . كان لمعانه كضـياء وسط الظّـلمة التي تجـتاح كيـانها. . . هو أغـواها إذن !. . وكـانت نفــسـهـا مـرتعــا لكلّ الغـوايات. . . أخــذته من على الطّاولة. .تأمّلته ثمّ رفعته والعتمة اكتسحت غدها حاضرها. . هي : ترى كيف تبدو ؟ جشم رأسها بهواجس مخذرمة. . أمّها تصرح فيها

- عساك تنفرين من ملامسة طفل لك ؟

- الأجدر أنّ أجد والده قبلا ؟

- وهؤلاء الذين يتودّدون إليك!

- أريده يحتويني فـأكتسحه.. والأطفال رياحـينا. ثمّ مرّة أخرى ارتسم المشهد المريع نصب عينيها : أترى "هيام" تغفر لوالدها ؟!

ببطء توجّـهت نحـو "بـيت الحـمـام" دست حـزنهـا..هي لم تصـرخ... لم تبك. ولشدّ مـا يحتـاج المرء إلى الدّموع كي يطـهّر الرّوح ويبرؤها...لكنّ نفسها لم تكن سوى طاهرة.. لم تكن سوى صادقـة. بحثت بداخلهـا فلم تجد سوى الفـجيـعة : تأوّهت : هي الخيانة إذن!

نظرت في المرآة.. اغـتـمت نفـسهـا وتجـاعيـد كـانت ترفل في وجهـها.. على جـبينهـا... بياض كـان يزركش شعـرها...«هو الزمن»!

كان السّكيـن ينبىء بانبعاث جديد وخلق جديد.. كان يلمع بين يديها المرتجفـتين.. اغتاظت من عجزها... من حـزنها الدّافق، لقد تربّع بداخلها وأنّى له الخـروج؟" كان ألمها ممضا و الوجـع حاقداً.. ادلهّمت السماء.. ارتجفت الأرض.. تفجّرت

البراكين...انتفضت.. كانت السّاعة تدقّ .. همست :

- عساها آخر دقّة أسمعها ؟!

فجـأة حدّقت بالمرآة... تكـوّرت عيناها... احـمرّت... بدت

بارزتين... مكوّرتين... لم ترتجف يداها؛ بل ضغطت على السّكين الغواية وراحت تدسّ بريقه وومضاته في ظلمة أطرافها ومتاهاتها:

نعم! عسى نوره يضيء الظلمة التي كانت تكتسيها طوال ثلاثين سنة.. لم تكن تتألم.. لم تكن تشعر بأيّ ألم... تدفّقت الدّماء، تفجّرت براكين، ولم تتألّم... لكن صورتهما هناك قرب البحر كانت تمزّقها.. تلطّخ كبرياءها... تدفنها في أعماق الأرض... فقط صوت منبعث من بعيد...

- أمّاه! أنذهب للبحر...

- ...

ثمّ صوت آخر لنجاة يترنّم :

-إنّي رأيتكما... تتحدّيان الشوق بالـ...

وما يزال صوت سيارة الإسعاف وهي تصرخ صراخا متتاليا.. قد تتلاشى قوّتها... شيئا فشيئا... قوّة الأكوان جميعها تندثر إلاّها.. كلّ الأحلام والقهقهات اللامتناهية... اندثرت إلاّها.. كلّ الأحلام والقهقهات اللامتناهية...اندثرت... وجسدها يتجرّع دماء... تخرج دماء وتغزوه أخرى فيرفرف.. منتفضا..

- أمي آش جرالك...

دقّت السّاعة مرّة أخرى... وانبلج الفجر.

❖ ❖ ❖

تراتيلُ المطر

❖ ❖ ❖

"حطّم، زلزل، أسكبني زهرا، أو أنثرني قطرات وجـد وهيام في كلّ مرتع. . . "

كانت تصـرخ بأعلى صوتها. تناديه. . والصّـمت يكتسح النّصب والأفيـان. . كانت ترتجف ونظراتهـا تائهة إلى اللاّهناك. . تقـاذفتـها الأمـواج فـأرست بين ذراعـيه. . . قـد تتـوهّم وقـد تحلم. . عـدة احتمالات تؤرّقها. . . لكنّها لن تتصابى

-"ما عاد في العمر ربيع"

همس فكرها المتـعقلن. . . وهمس آخـر كان يهـزّها هزّا. . . قد تلفظهـا الأودية والسّـهـول. . . قـد تركلهـا الصّـحـارى والرّمـال المتحركة. . .؟ قـد وقد! وقد تحتضنها المياه المتدفـقة. . . صدقت نجاة إذن:

"الشمس تكون أحلى عندما تحاول الغياب". . . تبسّمت وقالت: "هذا هو الحلّ الأفضل"

لقد قرّرت الرّكض في مساربها. . . قرّرت اجتياح صمتها الرّهيب ولتلبس أقنعة : الجرأة والكبرياء حـتما هى الأقوى! نظرت إلى يديها

المرتجفتين ثمّ رأتها تحمل نظرة إلى اللآهنا... محـملقة بدت.. في الأفق الرّحب...

مضت تختلف في مسارت لا متناهية... بيد أنّها كانت مغتربة! حدّ الغربة... اجتاحتها مشاعر ممزوجة متوهّجة... مشاعر بلا مشاعر... تذكره فيشرئبّ الضّياع في أعماقها... في سكون الكون وهدأته استكانت مشاعرها هناك... عنده. كانت الأمطار تنزل في صمت لا متناه.. قطراتها تسيل في خيوط متناسقة منتظمة فتلامس الأرض.. العودة إلى المنبع... الأصل. همست في سرّها : " ربّاه! "

علت بسماتها.. رنّت قهقهاتها.. فاح عطرها المميّز في كل الأصقاع.. هى هاهنا. تعلن أنّها للحياة تصلّى وتركع...شرعت تخطّ مسارات العمر. ترسم آثارها... هى ملأى بأناشيد البراءة والكبرياء... وشيئا فشيئا إنسلّ إلى صدرها رفيف الصبّاحات الباردة. كانت عتمة المغيب تجعلها تلج الحيرة والدّهشة، والسّؤال يدغدغ فؤادها :

- لماذا انتصبت أمامي رغبة جامحة ؟
- ترى أين هو . ولما أفكر فيه ؟

تحوّلت صخرة بلا حراك وبلا روح... والمتاهات المتشابكة تغمرها... لم تكن للفجر تتطلّع. لم تكن للعشق تتأمّل... بيد أنه انتصب هيكلا عملاقا يغازل وحشة ربوعها وينبلج حرقة تذيب

جليدها منذ أزمان عصيرة.

هى قد لقيته مصادفة نسجها القدر. ذات مساء في مساراتها اللاّمعقولة... التقته فبدا منتصبا أمامها رجلا بلا مدامع. فأبحرت فيه دون مجاديف :

- إنّه السيّد "ع" هو أيضا يستطيع مساعدتك.

- حسنا مساء الخير سيّدي...

- لم تتعوّد المتاهة لكنّها حينها تاهت!..

- لم تعتد الضياع. لكنّها يومها ضاعت.

- ألقت بجسدها المتعب المرهق على فراشها. غمرتها الوحدة.

- مضت الأيّام تجرّ الأيّام : الأمطار على موعد مع الأرض تختبيء بين ضلوعها.. تنزل فتقرع بللور النّافذة : هى تستأذنها لمصاحبتها في رحلة مجنونة : فبدت منصهرة مع هواجسها.

- كان وسيماً. كان جذّاباً. كان رجلاً وكفى.

نسيت كلّ عالمها. تجرّدت من كلّ الأزمنة والأمكنة.. لم تبق لها سوى بعض المتاهات.. تربّص الصمت بها. مرّة أخرى يرن صوته فتلقاها في متاهة بلا حـــــــــدود.

- خذ رقمي، تنجّم تكلّمني في كلّ وقت

- في كلّ وقت ؟

- إي بالطبيعة

سجّلت الرّقم في خلجات نفسها.. وراحت ترقص وتغنّي : قد أكتسحه ؟ قد يحتويني..؟!

السـيد "ع" عـذب الكلام. عطره... مميـز، جـدّ عمـره اتّزان ورشاقة ثمّ... عاله ؟

"في كلّ وقت ؟! ما عاد للزمن قيمة ربّما بالنسبة إليها

- أيعلم أنّي مـجنونة وأنّي أريده بعـيدا عن كلّ الأزمنة ؟ كـيف أخبره ؟

ارتجف فنجـان القهـوة بين أناملهـا, ارتجفت ركـبـتاها داهمـتهـا صبيانيّتها اللامعقولة.

- أ أهاتفه الآن؟!

كـانت قطرات المطر تلامس النّافـذة أمامـهـا وهي تجلس وحيـدة تؤنسها قهوة الصّباح وصياح النّادل يعلو من حين لآخر :

-" لحظة هاوجيتك خويا، أختي سافا!!"

صارت الأمطار سيولا تـنهمر وأفكارها تنهمر معـها... سبحت أغـوارها بعيـدا عن المعـقول.. كـانت الأمطار تهطل بغـزارة ودون انقطاع، كان هو يـجلس أمامهـا بكلّ ثقة واعتـزاز في النفس، وهي تجلس كملكة منتـصبة على عرشـها... لم تشأ للصمّت أنّ يـحضر بينهما... ظلّـت سويعات وهي تروي. وكان هو يبتـسم حينا وينعم حينا آخر... كانت تلقى سؤالا كلّما عرّشت الحيرة بداخلها :

- كيف تجدني ؟

- رائعة قطعا.

ويستـمرّ الحديث. يـرفع عنقه إلى أعلى كلّمـا دخل شخص إلى المقهى. كان يلتفت إلى هذا وذاك، ويصـغي إليها... كان ملّما بما

حوله وشغوفا بمعرفة أغوار الأشياء. . . خمّنت : "أتراه قرأ عينيّ"

لم تجرؤ أن تسأله. السّاعة الواحدة صباحا. . مرّت سويعات من العمر وهي تجلس أمام فنجان الشاي. . . والصّخب يعمّ المكان طورا ثمّ يبرحه طورا آخر. . .

كانت تحلم أمامه :

"سوف يحملني إلى فردوسه، سوف يضمّني إليه، وبكلّ قوّة يحضنني. . .

آه ! لطالما أحتاجه! سأبيت بين ذراعيه، سيداعب أطراف جسدي . . سوف يهمس لي:

أريد الغوص فيك، أريد اجتياحك.

وسأقول له :

- تغلغل فيّ دماً دافقاً. . .

بدأ المكان يرنو إلى الهدوء والسّكينة، سرت رعشة بداخلها :

"الآن سوف يرفعني عاليا عن معشر البشر. . . سوف يقول لي :

- تعالي ننتصب أفراحا في أفواه الأحبّاء. . . تعالي ارتديني أملا مورّدا على الدّوام. .

لم يكن يعلم أنّ الجسد مكبّل بالوهن المزمن. . .

عندما رفع كأس الشاي إلى شفتيه، أجهشت الغيرة تمزّقها أشلاء : "لن تلامس شفتاه سوى جسدي". فجأة رنّ هاتفه : "تبّا لقد سرقت منّي بعض الدّقائق، سأتلذّذ برؤياه وهو يتكلّم. . . كانت تروي ظمأها وما اكتفت. كانت تشبع عطشها، وما ارتوت، هي

- هذه أختي الصّغرى. تطلبني لمساعدتها في أمر ما.

- . . .

- صدّقيني، فزوجها مسافر وهى وحدها مع أبنائها المراهقين.

غمغمت بداخلها : "هل أبدو أمامه مراهقة ؟! ثمّ سألته : "أنغيّر المكان ؟!

سارا معا. . . الأمطار تنهمر. . أمسكت بيديه. . . اقترب منها ثمّ رمقها بنظرة ارتجت الأرض تحت قدميها. تصبّبت عرقا. . . غمرها لظى الصّيف. . . نزفت حدّ الفراغ إلاّه سكنها. . . !

أدار مقود سيّارته وانطلق، كانت ترقبه، تتأمله، حبك خيالها معالم متباينة:

"سيأخذني إلى فردوسه سيهمس لي «أريد الغوص فيك !»

وأجيبه : تغلغل فيّ دما دافقا. . . "

صرخت أعماقها : "ربّاه أريد أن ألامسه، سأرفع أناملي وأغازل أطراف جسده. سأمارس طقوسي المتهوّرة معه". .

كانت قد بلغت حدّ النّشوة, وعظمت بداخلها الشهوة. . فجأة اختار لسيّارته مكانا ثمّ نزل فتبعته في صمت رهيب. كانت تخشى أنّ تفضح رغبتها؛ بل عساها تتمنّى لو يتطلّع لما يؤرّقها. لكنّه ظلّ صامتا فبدأ كهرم في شموخه ورحابته. . إنّه بارع جعلها تبحث عن قمّة تلتقي عندها عيناهما، أغوارهما. لربّما اتّحدا!

أخيرا دخلا مكانا آخر. . كانت الموسيقى منبعثة في مناجاة رحبة،

تهزّ الأوصال فهزّتها.

رأت ذاتها ترقص وتتمايل وإيّاه على حفيف الأوراق المتناثرة في كلّ مكان... رأتهما متشابكين يتمايلان في كلّ الاتجاهات، كلّ الطيور تغرّد نشوة لهما، رأته يهمس في أذنيها : دعيني أحتويك..!

فتذوب في شفاهها الإجابة وبتألّه تضع رأسها على صدره... تستمع دقّات قلبه المتسارعة...ثمّ تصدر الأمطار صرخة مدويّة كسيمفونيّة بيتهوفن الخامسة... تفتح عينيها تنظر إليه..

إنّه لم ينفعل، لم يدعها للرّقص، يرفع يدها، لم يلاصق جسدها المتعب التّائه : أتراه لا يعلم أنّ جسدها مكبّل بالوهن المزمن ؟! فقط كان ينفث الدّخان فيتصاعد إلى الأعلى ويشكّل رسوما غير واضحة... تواصل الحديث مرّة أخرى... تصارعت طويلا مع هواجسها "-ما باله متجمّد إلى هذا الحدّ

- أهو متزّن ؟.. لكن إلى حدّ اللاّمبالاة، لكأنّه الجليد"... إذن لن يذوّب ثلج عبراتها... أشعل. ثانية، سيجارة. أوشكت السّفر مع دخّانها، لكنّ صمتها أعلن صراخا لا متناهيا :

- أريد أنّ أغادر

- حسنـــــا

نهض في صمت واتّزان غريبين... حين بلغت باب منزلها همس لها : - أأراك غدا؟!

لم تجبه... كانت الأمطار قد كفّت عن النّزول، كانت قد توقّفت عن هذيانها.



نسماتُ الماضي...

❖ ❖ ❖

اشـتـدّ القصف والرّعـد. . . لم تكفّ الأمـطار عن النّزول لحظة واحدة. . كانت الرّيح تصـفّر صفيرا مـخيفا ينبيء بقـدوم أمر ما. . فجأة لاح في الأفق بعض الصحو.

تململت في فراشـها ثمّ غادرته أخيـرا. . . في هذا اليوم لم تُضِع الكثـير من الوقت وهى ترتدي مـلابسـها وتوضّب مظهـرها، ألقت ببصرها إلى السّاعة الحائطيّة. . .

كانت السّاعة الحادية عشرة صباحا. فهمست :

- إنّه الوقت المناسب حتما سأجده في المكتب"

سارت "ضـحى" في الطّرقـات والأنهج تحت وقع حبّـات المطر، وبالها مـشدود هناك: أين. . . تحيطه الكتب والمجـلاّت. . . عرّجت على هاتف عـموميّ قـبل بلوغ المكان لتتـأكدّ من وجـوده بالمكتب : فجاءهـا صوته ممزوجا ببعض التّـعب وبعض الاشتياق والحنين إلـيها والحال أنّهما التقيا منذ أيّام قليلة :

- عزيزتي. . . أنا أنتظرك. . . فهيّا إليّ.

ابتسـمت إبتسامـتها المـتأتيّة من الأعـماق وسارت إليـه. . . كان

يوسف منهك القوى.. مبعثر الأفكار... تحمل نظراته حزنا عميقا وحاجة لا مثيل لها : إنّه يحتاجها!

فحين رؤيتها أمامه بالباب جذبها إليه واحتضنها بقوّة كما لم يفعل ذلك من قبل... ثمّ ببراءة وبراعة أجلسها على الكرسيّ المتحرّك وراح يداعب شعرها ويبعثر خصلاته المتلألئة. تارة بحنان ورفق وتارة أخرى بعنف وقوّة.. ثمّ صرخ قائلا :

- لماذا تأخّرتِ كل هذه الفترة : أظنّكِ تعرّفتِ إلى شخص آخر.. آسف.

بغتة صَمَت. كف عن الكلام وشرع يتأمّلها كأنّه يسائل عينيها الصدق والحقيقة.. كأنّه يناشد الطمأنينة والرّاحة.. بدا متعبا، أضنته الأيّام.. جثة متداعية ومترامية... مبعثرة هنا وهناك.. سمعت صراخا منبعثا من أعماقه :

- دثّريني بطيبك! لملمي شتاتي الضّائع..

لم تقو على الاحتمال : نهضت من مكانها ودون أن تنبس بكلمة عانقته.. عساها تلبسه رداء يذهب عنه صقيع المشاعر.. عانقته حتّى أنّها نسيت الزّمن والمطر والرّيح... إنّ ما يربط «ضحى» بـ «يوسف» لم يكن علاقة عشق وهيام، كلاّ! إنّهما باتا شخصاً واحداً.. وحلماً واحداً بالرّغم من المسافات الفاصلة بين تواجدهما. فقربهما قد محى كلّ المسالك.

- لا أخالك تشتاقني بقدر إشتياقي لك ؟!

تساءلت ثمّ عادت إلى الكرسيّ المتحـرك ولتجلس، بينما شرع هو في بعثرة الأوراق المتواجدة على مكتبه وإعادة ترتيبها على غير هدى. وكان كأس الشاي أمـامه منذ عدّة ساعات.. لقد اكـتسحه اضطراب مفزع.. انسلّ إلى صدرها غيظ : أتراه لا يبرأ بوجودي ؟!

أحسّـته يتململ، ينازع الحيـرة. يودّ أن ينثرها أمامـها، هو يريد الكلام والتحـدّث في أمر ما. لم تسألـه. فقط راحت تمعن النّظر في هذا المكتب الذي لم يكتب له يومـا التّنظيم.. وهذه الكتب المرصّـفة بمخـتلف الأحجـام وتلك المجلّدات والمقالات... هي بئـر عمـيقـة يصـعب الاقتـراب منهـا سواه. لمحتـه يسرق النّظـر إليهـا من حين لآخر... كان شوقها ممّضا، يكاد يصرعها... أتصرخ في وجهه : "ما الأمر ؟" بيد أنّ رباطة جأشها جعلها تسأله في هدوء وسكينة لا نظير لهما :

- ألم تر الأمطار في الشـوارع والأنهج؟ رفع رأسه ويداه تـعبـثان بالأوراق أمامه... حدجها ثمّ قال :

- هل قرأتِ آخر مقال كتبته منذ يومين ؟!

لم تنطق بحرف، لكنّها رفعـت جبينها مستغربة سـذاجته، والحال أنّه متأكد من متابعة كلّ ما يكتب.

ران بعض الصّمت ثم بدأ ينزف أمامها :

هل تعلمين أنّ المرأة هي الوحيدة القادرة على تشكيل الرّجل؟!

نعم! هي قادرة على صنعه كيفما أرادت لربّما لا تدري ذلك.

فأنا مثـلا لأختي الكبرى عليّ فضل وجمـيل لن أنساه. لولاها لما إنبجست مشاعري الفيّاضة تجاه الأدب والفنون... إنّ طريقة معاملتها صيّرتني أشعر وأحـسّ بعدّة مسائل قد لا ينتبه إليهـا بقيّة الرّجال وقد لا يعرفونها...

صمت لحظة، فنهضت ووقـفت وراءه تماما وبدأت تداعب شعره وتقبّله عـلى جبينه من حين لآخـر كأنّه طفلهـا... هي متـيّقنة تمام اليقين أنّه يحتاج دفئها، فلازمت الصّمت "لقد كنّا أربعة إخوة وكنت أصغرهم بعد وفاة والديّ، تكفلت أخـتي الكبرى بتربيتنا ورعايتنا.. أكبرنا أخ يدرس بالجامعة شعبة علوم. كان نادرا ما يقبع في البيت.. فأخواتـي البنات يخفنه كثيـرا.. ويعرنه اهتمامـا كبيرا : "إنّـه سيّد البيت". يسكت الجـميع إذا دخل هو، نادرا ما يتكلّم.. أمّـا معي، فأخـواتي يتصـّرفن بكامل حريّة ودون اهتـمام. رأيتـهنّ يتهـامسن، يضحكن، سمـعتهنّ يروين قصص عـشقهنّ دون خجل. حـقا! لقد صاحبتهنّ إلى كلّ الأماكن التي يذهبن إليها : السّوق، الحمام.. نعم لطالما دخلت معـهنّ الحمّام مع النسوة، كنت أتأمّل هذه، وأسـتغرب شكل تلك... وأجلب مـاء لأخـرى... كنت طفـلا في عيـونهنّ وكانت ذاكـرتي تدس .. منذ سنة تقريبـا، رحت إلى قاعة السّـينما وددت مشاهدة فيلم "عصفـور سطح" حينها سبح فكري... دغدغ أمسي، نبش الماضي فأيقنت أنّـه يسكنني حاضرا... هو لم يمّح... فأحـسست أنّني "العـصفور" ينطّ من سـطح لآخر... رويدا رويدا

مـال صـوته إلى الحـزن، أحسّتـه "ضـحى" يحـمل بعض الآلام والشجن. إنّه يختنق من الوريد. فقاطعته :

- لكن أختك قد اعتنت بك. هى قد حرصت عليك... لذلك اصطحبتك إلى كلّ الأمكنة. أتلومها الآن ؟!

واصل ببعض المرارة :

- طبـعا لا! لكنّ كلّ تلك الظّـروف جعلت منّي مـرهف الحسّ والشعور، لربّما انتابني شعور بالألم لرؤية مشاهد ومناظر قد لا تؤثر في معشر الرّجال..!

قالت: هذا أمر رائع، حتما. الآن أجدك تمتاز عنهم.

- كالعادة "ضحى" تجعلين منّي بطلا أسمو عن الجميع.

- كفّ عن تعذيبي... إنّي أريدك همسا...

.. راحت تتحسّسه بطرفي أصابعها. ثمّ : همست في أذنيه وهى ترفع إليه كأس الشاي :

"كان مقالك رائعا ومميّزا دون سـواه... والحقيقة هذه المرّة نبشت عدّة جراح. أما آن لهمسنا أنّ يتحول أنغاماً تطرب من حولنا ؟"

بقي صامتا.. فواصلت بعزم شديد :

- علمت بمرض أخـتك وبزيارتك لها.. وأيضا بأنّـك قد بكيت عندمـا آلمك منظرها وهى تلج الفـراش وتئنّ.. نعم! ليس عـيبـا أنّ نظهر مشاعرنا تجاه المحيطين بنا... لكنّي لم أعهدك ليّنا لهذا الحدّ ؟!

بدت عـيناه تبـحثـان عنهـا... طوّقـته بـذراعيـهـا بكلّ حنو. ثمّ

وشوشت:

- ما رأيك لو نسير تحت حبّات المطر ؟

خرج الصديقان ملتحمين متحدين، وقطرات المطر تذهب عنهما كدمات الماضي، وفرحة الحاضر وحيرة المستقبل .لقد أحس يوسف ببعض الراحة، وأيقن أن أخته سوف تشفى. . .وأن حلمه سوف يكبر ويعظم، فقط لأنه امتلك روحا تسانده دوما . .وتبعث الانتعاش في أوردته كلما اقترب من رحلة الماضي. . وأحسته "ضحى "قد ناشد سكينة فكره. .فأمسكت بيده معلنة في أعماقها:

- لطالما صنعتك همسي الأوحد، لطالما رويتك صدق مشاعري ونبض فؤادي ،إنّي أزفّك حفيف وجداني وارتجالاته. . الآن! أعلم جيّدا أنّنا نمضي جنبا إلى جنب وسنظلّ. . .

وكان القدر ينشد :

مطر. . سارا تحت أريجه مرّة

مطر. . . قد نزل

قطرة منه ارتواء

قطرة منه احتواء

وقطرة منه ربّما. . . بعض الرّجاء

سارا

محمّلين بالشوق الدّفين

والرّيح تلفح الذّكريات

فهناك.. رسوم وخطوط واشتهاء..
المطر قد نـزل
كانـا تحتـه
شهـوة الصّمـت المكبـّل
والقــدر
كانا نـشوة حـبّ مدفـون
والقـــدر
كـانـا... أنـغـام طـير في الأعـالي
والمحـن...
ثـمّ وبـبعــض الأمـان
صارا.. صخرة نحتـها القــدر
صخرة هـما
فانتشرا في أرجـاء المعابـد
والمقـابر
هي... هـاهـنـا
أرواحـهم وبـعـض السّلام..
هي... هـاهـنا
آثـارهـم والدّمـاء...
وعـلى قـمـّة الاشـتـهـاء
كتـبـت لـوحـة:
«إنسان مرّ يوماً من هنا»

❖ ❖ ❖

الأرنب

❖ ❖ ❖

تنهـد تنهيـدة عـميـقـة وهو يلقي بجسـده المتـعب إلى الكرسيّ المتحرّك. رفع يده اليمنى، كانت السّاعـة الواحدة مساء. . . لقد كان يومه مليئا بالمفاجآت. . . كالعادة. .

حـملق في المكتب. . . الكتب مـرصّـفـة بانتظام, بعض الصّـور التذكارية. تشهد نجاحاته وانتصاراته المتواصلة على الدوّام. . . فناجين القهوة لا تزال مبعـثرة على الطّاولة منذ زاره السيّدان : الرئيس المدير العام والسيّد المندوب الجهويّ لـ. . . فهو رجل مهمّ له مكانة مرموقة في المجتمع. . .

بغتة رنّ هاتفه الخلويّ وجاء صوتها الحادّ :

- هيّا الأولاد ينتظرونك لتشاركهم الغداء.

- حسنا

أجابها باقتضاب وقرف. هى "هناء" زوجته. . . عساه ملّ ترنيمة صوتها الصلب ؟! إغتمّ فهمس فؤاده :

- كالعادة لم تنتبه لما يؤرّقني.

مرّة أخـرى رفع يده اليمنى. . . رمقـها. كان جـرح طفيف على

ظهرها. سكنه حزن أليم. من جديـد نظر في الساعة. لم تبق سوى بعض الدّقائق ليتعرّف إلى رأي الطبّ في جرحه ذاك. بل عساه ينتظر "قرارا" لمعرفة مصيره...

- قطعا سيطمئنني صديقي "عماد".

منذ أيّام خلت وعنـدما كـان ينّظف مـأوى الأرنب جـرحـه بمخلبـه الصّـغير. حـقا لم يـسل الدمّ، لكن الأثر بات يؤرّقه. هو لم يهـتمّ بالأمر لحظتها لكنّ صوت صديقـه، بعدما أعلمه بالحادثة، ظلّ يتردّد صداه :

- حسنا بما أنّك لم تحقن يومـها فبإمكانك الانتظار خمـسة عشر يوما تراقب خـلالها الأرنب فإنّ توفيّ فذلك يعني أنّه مـصاب وأنّك تنتظر..!!

الحقيقـة، لقد مرّت المدة ولم يمت الأرنب فأمضى يومـه بهيجا. هى فرحة الحـياة.. غمرته. لكنه فوجيء بالأرنب صـريعا في اليوم الموالي،

مرّة أخرى تسكنه الحيرة.

ران الصمت. والمكان قفر. إدلهمّت السّماء، دوّت الأرض تحت قدمـيه... اهتزّت.. ربما تبـعثـرت الأحلام وامتـزجت بالأحزان. اصطدمت قوّته بضعفه عند قمة الطّريق...

- لم مات الأرنب ؟!

أهو أيضا يواجه نفس المصير؟... الرّحيل.. مضت السّاعات تجرّ السّـويعـات في سكون رهيب. رحـل فكره بعـيـدا على المدى...

والصوّر ترتسم أمامه ممزوجة بأنّات ناي ينشد لحنا حزينا. تشيّع هذا الجسد: رآه يُحمل على الأكتاف، رآه ملقى في تابوت يعجز عن الحراك، عن الكلام... يودّ لو يصرخ:

- "كلاّ لن أرحل" لكنّه يعجز ثمّ يقصف الأمل.. ابنه أحمد يهتف:

- أبي أرجوك اشتر لي أرنبا صغيرا.

"تبّا هذا الأرنب المشؤوم سبب بلائه.

- لا تنس أنّ تحضر اللّوازم التي طلبتها منك لقد دوّنتها على ورقة ووضعتها في جيبك الأيمـــــــــن.

راحت الأصوات تختلط، تمتزج، تتماوج... لحح السّاعة... لقد نفد صبره "الصبّر ملجأ الضّعفاء حين يعجزون وليس ملجأه".

راح يزرع المكتب. رأى الأزهار تكاد تفقد رونقها... آلمه المشهد فرمى المزهريّة ملء يديه "الرّحيل مرّة أخرى" ما باله لم يتصل حتى الآن؟"

خنقته الحيرة حتّى الوريد، تربّع الخوف بداخله بكلّ أريحيّة. وراح الضّياع يفتت اتّزانه.

أخيرا... اختطف المفاتيح من على مكتبه وغادر... نزل الأدراج باتّزانه المعهود ومشيته الرّصينة، استقام كلّ عامل وحيّاه إكبارا وإجلالا. فهم يخافونه، يهابونه حدّ الرّعب... يخشونه... إنّه السيد المدير... ومنذ وصوله كان مثال الصرامة والجدّ. لم يصل مرّة متأخرا مهما كانت الظروف، كان قليلا ما يتكلم... فقط هو يعمل

و يعمل . . . هو مثال للجد فرآه يرحل في صمت . . . همس : ماذا جنيت من الكدّ المتواصل ؟ قطعا سيجلس آخر مكاني وتضيع ذكرياتي. من سيذكرني ؟ عساهم يسعدون بذلك ؟" فتح سيارته وانتصب داخلها بجسمه المتزّن، مايزال خفيف الحركة، وسيما جذابا دائم الاعتناء بمظهره. . أفزعه الصوت المتهدّج الصّادر من أعماقه :

- أين الملف الذي طلبته منك ؟ أنت دائمة الإهمال

- لكن سيّدي. . . أنا. . . أنا. . .

- أنتِ متهاونة، هيّا غادري وكفّي عن التلعثم واحذري خطأ آخر وتغادرين المؤسسة نهائيّا. واضح. ثمّ شهيقها وهي تغادر المكتب أصدع أذنيه. اليوم فقط استحضر هذا المشهد. . . تسرّب الأسف إليه قليلا لكنّه وكعادته اندفع بسيارته في مسارات طويلة.

كانت الأشجار تمرّ وتتراجع يمنة ويسرة وهو يتوسّطها كأنّه الطّاووس يعبر ويتهادى في مشيته. فجأة إنتابه شعور غريب بأن يسير ببطء. ويتمعنّ فيما يحيطه.

منذ سنوات لم يعن بما يحيطه من تغيّرات؛ بل عساه لم ينعم بجمال الطّبيعة وبهائها. . . كان كثور مربوط مغمض العينين، ضغط على المكابح خفّض من السّرعة.

تباطأ. رأى النّاس يسرعون، يهرولون كلّ يمضي في طريق مختلف لكنّه يسرع. الجميع يسرعون "هي الحياة تأخذنا بعيدا". تذكّر الموعد نظر السّاعة، الجميع يسرعون سوى هذا الزّمن يتباطأ.

«لم لم يهاتفني» ظلّ يسير ببطء عساه يقتل بعض الوقت. . . ثمّ

تتـماوج أمـامه صـور وصور غـريبـة. . دون انتظام. . . أبناء أخيـه يصطفّون أمامه واحدا واحدا. بثياب رثّة بالية، دامعة عيونهم، شاحبة وجوههم، وهـناك. . غير بعـيد رأى أخـاه "صالحا" بـثوب أبيض، يحـدّق فيـه، نعم! رآه واجمـا أمامـهم بصـمت وأسف منذ سنوات غادرهم إلى العالم الآخر: ورجاء زوجته الآن يصرعه!

- أرجوك يا محـمّد إنّ أبناء أخيك سيموتون جـوعا. . . أرجوك اعطنا مـيراثنا وسنختـفي عن عـالمك. دمعت عينـاه. . اغرورقت. . اكتسحته رعشة. . الآن فقط تعرّش الذّكريات أمامه.

اليوم وقد مضت خمسة عشر يوما، بل ستّة عشر يوما. . . نكس رأسه ؟ "مـاذا سيـروي لأخيـه صالح حين يـلقاه ؟ ازدادت سـرعة السيّارة دون أنّ ينتبه، رآه منتصـبا في مملكة العراء، رآه يتسوّل بعض العفو والسّماح. . رآه وراء قضبان من أشواك. خيّل إليه أنّه متغطرس جبّار. كيف ارتخت أهدابه ونام وأبناء أخيه محرومون؟!

- ونحن عائلتك أحقّ منهم. . لسنا مسؤولين عن أحد، تستطيع الأمّ العمل فهي قويّة البنية، أو فلتـرسل أطفالها. أنّب نفسه : كيف يبيت مسلوب الإرادة يلقى مصيره تحت قدميها وهو المتغطرس ؟؟

"هذه هي النّساء تصـيّر أقوى الرّجـال". هتف بداخله كأنّه يضع بلسما لجراحه. . .

ثمّ صوت من داخله يهتف : "أما آن لصـمتك أنّ يتفجّر ؟" ظلّ الطريق أمامـه ممتدا إلى مـا لانهاياته. . . يؤرّقـه الانتظار: النتيـجة، النهاية. مصيـره. . . عبس وجهه. . . زمّ شفتيـه. تبسّم. انسلّ إليه

حفيف المساءات الدّافئة... اختمر وجدانه عشقا وهياما...

خفق فؤاده إليها... بؤرة أحلامه وهسيس آلامه... كانت فتاته "اعتدال" تترنّح وتتمايل أمامه بدلال.. جسمها الرّشيق وقدّها الممشوق.. ها هو في إمبراطوريّة السّحر والجنان.. والرّياحين تفوح... دغدغه الحنين إليها.. تمطّط أمام مقوده فازدادت سرعة السيّارة.

- ما أحلى أوقاتي المسروقة بين أحضانك.

- ...

- أحنّ لصوتك يرديني طفلا بلا مدامع.

- أنت تبالغ... يمكنك أنّ تقبع معي زمنا أطول

- ...

صمت، بينه وبين نفسه كان الصّمت سلطانا يخرس لسانه "أتراه مذنبا يخون زوجته ؟"

تجشّمت الأفكار السّود في رأسه من جديد... صرخ نداء من أعماقه :

- عتمة الحاضر تخنقني.

السّاعة الثالثة مساء : لقد فات الموعد المتّفق عليه بينه وبين صديقه الطّبيب

"ما الخطب!"

أحسّ بألم ممض في رأسه فجأة... عظم أزيز محرّك السيّارة ثمّ بدأ ينخفض تدريجيا حتّى توقفت.

"لقد انتهى الوقود"

نظر حولــه فإذا هو في مكان مرتــفع يطلّ على واد تحيطه أشــجار كثيــفة، رفع بصره فإذا الجبــال ممتدة من كلّ الجهات، كانت شــامخة رحبــة وبدأت السّحب تحــجب أشعة الــشمس وراحت تتوحّــد فيــما بينها. . . ثمّ شــرعت الأمطار تلامس بلّور سيّارته. . . كأنّهــا تستأذن اجتيــاحه ، استند إلى الكرسي : رآه متلاشياً مــتداعي الأوصال. ظل برهة من الزمن فقط كانت تراتيل الأمطار . . .

لمح عينيه فــي المرآة الأمامية فإذا همــا محمرتان، سكنتــه، رعشة دافقة كأنه لظى الصيف والحال شــتاء. . .من جديد تتشكل الرسوم ، تتصارع وتصطدم عند قمة. . .وأصوات غير واضحة : بكاء، نواح، قهقهات، أوامر ثم عويل. . .

صوتها : ـ "لا تنس البنزين الاضافي".

" هذه الفكرة الوحيدة الصائبة التي ملكتها ".

لاح شعــاع الشــمس منفردا وسط الغــيوم الكثــيفــة . . .نزل من سيــارته نحو مؤخــرتها للتزود بالبنــزين الإضافي . . .أدخل يده إلى جيبــه الأيمن أخرج لائحة الطلبات. . . مزقهــا وألقاها أرضا. . . ثم عاد إلى مقعده: لمح علبة المناديل الورقية أمامه : غمغم :

ـ يلزمني الكثير منها . . .

ثم انطلق .

❖ ❖ ❖

ويتكفي ع البحث ..

❖ ❖ ❖

. . .نعم. روت له ما يحلـو لها من القصص والأحـاجي، كانت تتلذَذ في صنع أحداث من نسج خـيالها، حتّى أنّ عينيـها اغرورقت وهي تروي وتصف وتطنب في الوصـف، مسح دمـوعهـا متـأسّفـا ومتأثّرا شديد التأثر. . .

حملقت في عينيه : لقد كـاد يبكي. . . رمته بنظرة ساخرة. . لم يفهم معناها. . . أمسك بيدها وقبّلها ثمّ بكلّ اعتزاز وفخر :

- ولكن، فـالمهمّ أنّنـي مـعك وسـأظلّ لجـانبك، أرجـوك ثقي بي. . . سأمنحك حياة جميلة ورائعة، مابالك لو نسير تحت الأشجار ؟ سننعم بجمال الطبيعة سويّا. . "

همست : "ربّاه! أكاد أصدّق نفسي وأدخله عالمي الخاصّ.

ثمّ سارا جنبا لجنب. . . وبين الفينة والأخرى يضـمّها إليه. فعلا! أحسّت بعض الأمان مـعه، بل عساها برعت في جـعله يعمل جاهدا على منحها بعض مـا افتقدته. ضغط على يديها فـارتجفت. أفاقت

بسرعة مذعورة:

- يجب أن أعود الآن!

قاطعها قائلا : كلاّ، فإنّي اليوم أترك العالم كلّه لأجلك فابقِ معي.. ابتسمت، واصلا المسير...

كان الجوّ رائعا وجميلا كأنّه الرّبيع والحال أنّه فصل الخريف.

هاهي.. إذن.. كأنّ القدر يسخر منها مرّة أخرى كعادته.

هيّا أفيقي. ولئن اقتنعت بأنّك الأقوى فأنت تحتاجينه لا محالة، مهما روت فتكمن بعض الحقيقة والواقع...

- نعم. صرخت وهي تتأملّ ذاتها في المرآة.

- نعم! احتاج من وقت لآخر من يضمّني إليه، من يرديني طفلا بين ضلوعه. وأشعر معه بعض الأمان.

- و... ألم يمنحك الشعور بالأمان.؟

- نعم ولكن أمانه بات فاترا مملاّ...

- و...

- نعم، فلان وفلان.. وغيرهما كثير.. فالواحد منهم آخذ منه بعض الأمان حينما يكون صادقا. ثمّ أسير وحيدة في طريقي الأوحد.

- وإلى متى ؟...

- إلى أنْ أجد من يبحث هو عن الأمان فأكون أمنه وطمأنينته..
إنّني أريد الضائع حتّى أكون طريقه ومسلكه الذي سيعبره... إنّني أريد المتعب لأكون راحته التي يبحث...

وحتمـا، حتمـا ذات يوم، ذات فصل، ذات فجر، سألقـاه.

❖ ❖ ❖

رجاء

❖ ❖ ❖

تلبّدت السّحب في السّماء، واختفت الشمس بصفائها، تاركة الغيوم تكتسح الكون كلّه حتّى بات في ظلام لا متناهٍ. .

جرت بسرعة نحو مكانه الذي لا يبارحه إلاّ للعمل، وفي صدرها ضيم يكاد يخنقها، وتواصل جريها يتبعه لهاث لا مثيل له، حتّى بلغت مكانه. . . هناك. . طرق الباب في ساعة متأخرة من اللّيل. . تراجع في البداية. . . لم يرغب في فتحه. ثمّ فجأة انتفض كأنّ عقربا لسعته وهو حافي القدمين، ارتعش من البرد لكنّه فتحه أخيرا. .

ارتمت بين أحضانه كطير جريح لا يزال نزفه جديدا. وألقت بكيانها كلّه عليه كمن ألقى حملا ثقيلا على الأرض، بينما راح هو يضمّها بكلّ قوّته إلى صدره ويداعب شعرها. . .ونسيا كلاهما البرد والظّلام وقطرات المطر المتساقطة على أوراق الأشجار في

الحديقـة. ظلاّ معا كـجسد واحـد، وتتابعت أنفاسـهما: فـجأة، نظرت إليه وإلى عـينيه اللّتين تشعّـان نورا ووميضـا. ثمّ قالت له: «سامحني أرجوك».

سرى هذا الرّجاء إليه كصاعـقة أيقظته من غفوته الطّويلة، لم يشأ أنّ يتعب فكره. نظر إليهـا متسائلا: "لماذا ؟ وعمّا أسـامحك ؟ ماذا اقترفت ؟"

ثمّ.. راح فكره مع دخّان السّيجـارة التي أشعلها، مضت لحظات لكنّه لم يسمـع الإجابة : أعاد النّظر إليـها.. بيد أنّهـا مستـمرة في مكانها دون حـراك.. عجبا مـاذا حصل ؟ ألقى بالسّيجـارة وانتفض ليـبحث عنهـا، عن صـوتها، عن لهـاثهـا الذي كان يسـمعـه وعن رجاءهـــــا.

لكنّ، دون جدوى لقـد رحلت تاركة إيّاه في حيرة. وفي ضـياع وحسرة ظلّ يتـأمّلها ويسترجع أيّامـا رائعة أمضياهـا معا...في تلك الأثناء سافر فكره بعيدا : حيث الضّـحكات والهمسات الماضية وإلى إنسجـامهما منذ فـترة وجيـزة...وبعثر ذاكرته، مـاذا حصل ؟ لماذا جاءته في سـاعة مـتأخرّة من اللّيـل لترتمي بين أحضـانه وتطلب منه السّماح...؟؟

وتتالت الأسئلة في ذات الوقت الـذي استمرت فيه السّـيجارة في الاشتعـال إلى أنّ علت النّيران كلّ الغرفة، وكـان جسدها ملقى إلى جانبه.. وكانت روحهما معلقة هناك بعيدا..



رسمٌ على الجليد

❖ ❖ ❖

ذات ليلة.. تتبخّر الأحلام.. تضـيع.. ترتسم الذّكرى ثمّ تصير سرابا يحـوي أشباح خـيالات.. سرابا محطّـما يرتأي به الفكر... يرتأي به الوجدان إلى عالم اللاّمعقول...

هى خيالات باهتة لأحلام ضاعت وتاهت بعد مضاجعة الزّمن.. ثم تتبـاعد لتصيـر ذكرى... لدمى من جليد، بل عـساها دمى من دخان تصـعد للأفق لتكـون كزغردة شـهيـد أو كصـراخ رضيع... وتنتصب:

أنت قـد كنت حبـيبي، كنت عـالمي، كنت جنّة خلدي، لا! لم تكن يوما جنّة ولا عالما لي : بل أنا عالمك وجنّتك المرتقبة..

أسكنتك قضـبان قلبي.. رويتك حـرارة همسي.. دثّرتك نبـضه حين يسـرع وحين يتـبـاطأ... فـفي داخلي أسكنتك فكان مـهـدك الأوّل... ثمّ تقيّأتك من أحشائي لتكون لي دون سواي.. وألبستك طيب براءتي وبرنس أحـزاني وأفراحي.. عالمك أنـا، وأنت عالمي. عالمك أنا وأنت عـالمي فلماذا يغدو عـالمي، صامتـا شاغرا ؟! تصـير

أحشـائي فارغة، باحـثة عنك، فتـضيع مع لفحـات الشمس أو مع قطرات المطر ؟ عساك هناك. . ؟!

قلت لك مسكنك قلبي. . قلت لك مرتعك خلجات نفسي، فكن قصائدي وأنا الشـاعرة، أو فلتكن شاعرا وأنا صـدر بيتك، وكن لي دون سواي! لكنّك أضحيت جلاّدا وحـبّي السّلاسل. . فمتى تكون رحمتك وقد كنت نغمي المنبعث من أنّاتي. . !

أسلمتك زفراتي فركلتها. . . تركتها ضائعة وسرت دونها. . .

تبعتك أحـلامي فحطّمتهـا، حطّمتها وامتـثلت سرابا فأخفـتها. . خافت أحلامي. . . سبحت في الكون البعيد. . تعطرّت بوهم ذكراك حتّى الوريد. . حتّى صارت كدغدغة الشّريد. . . صارت كرسم على الجليد. . . تذوب. . . إذا تثاءب الصّباح. .

❖ ❖ ❖

نداءُ القلبِ ..

❖ ❖ ❖

آخر كلمة أذكرها : "أحتاج إليك كما لم أحتج لأحد سواك من قبل" . ثم أبعدت سمّاعة الهاتف تاركة الدّموع تنهمر كما إعصار جارف حمل معه كلّ ما يصلني بهذا الكون: الأهل، المشاعر، العمل، المائدة... كلّ شيء راح مع تيّار دموعي كأنّه الطّوفان يأتي على الجميل والقبيح فيسوّي بينهما، بل عساه لا يبقي منهما شيئا... إلاّ أنّه في تلك اللّحظة رنّ جرس القلب يعلن احتياجا لا مثيل له "أنت ؟" نعم أنت فقط من كنت أنتظر، حينها رأيتك على متن آمال وآمال تسرع نحوي، تنتزعني عوسجا من آلامي وعذاباتي، ثمّ تزرعني إكليل أحلام وأمل... رأيتك تحملني إلى أعلى، أعلى هناك بعيدا عن هذا العالم قريبة من كوني واختلاجاتي، أحسست همساتك توقظني من غفوتي اللاّمتناهية... سمعت محاولاتك تلك ترفعني لأسمى معاني الوجود وتبوّئني أميرة تاجها الأمن وعرشها الصّدق والسّكينة...ثمّ... وجدتني أجري ويدانا معا في اتجاه طريق لا حدّ له، المهم أنّ نبحر معاً على متن حلم مشترك...

حينها ضاع كلّ آخر إلآك، طوّقني بين ضلوعك، عندها احتبست أنفاسي، جفّ حلقي، وشيئا فشيئا بدأت حرارة الخارج تصلني، حتّى امتدّت إلى أوصالي أردت التكلّم لكنّني عجزت : نعم! أحسست مرارة تجتاحني بعمق : فتحت عينيّ فوجدتني قابعة في مكاني الذي غادرته منذ لحظات إليك.. وبين يدي سمّاعة الهاتف، وعلى كفّي بقايا دموع... عندها تذكّرت أنّه لم يسأل ما بي عندما قلت له "أحتاج إليك" بل لم يحاول حتّى تهدئتي.. سرى السّرد في عروقي... احمرّ جفني خجلا إذ تصوّرت أنّ كلّ ذا العالم قد سمع ندائــــي...

سرت في طريقي من جديد بمفردي أحاول انتزاع حسرتي وندمي، ورحت ألوم نفسي كيف قلت له ذلك ؟ ؟ لماذا هو بالتحديد؟ وامتزج النّدم بالقرار.. يجب أنّ أمضي وحدي كما اعتدت دونه... سرت طويلا.. لم أنتبه أنّ الأمطار قد امتزجت بدموعي وبأنّ البرد قد أدفأني، وأنّ السّماء قد وقتني،حتّى الأرض وجدتها قد رافقتني في كلّ مسالكي... فجأة : توقفت قدماي لم تقو على المسير، ثمّ سرى بعض الاكتفاء فيّ.

حقا تكفيني الطّبيعة أنيسا ورفيقا.. أخيرا ابتسمت وعدت أدراجي إلى مسكني إلى عالمي لأعانق أوراقي...ورحت أصعد الأدراج ببطء لا متناهٍ. فجأة توقّفت أسترق السّمع : كأنّه رنين الهاتف "نعم هو" جريت نحو شقتي، تلعثمت عند فتح الباب

اختطفت السّماعة في آخر رنّة...

مضى وقت لا بأس به وأنا أستمع ثمّ ألقيت بكاهلي على الأريكة : علت على محيّاي سخرية القدر منّا معشر البشر.. منذ سنوات قد كنت أحتاج إليه... انتفضت خوفا من مضيّ ولو ثانية من العمر وبسرعة وجدتني أقود سيّارتي بجنون حتّى أنّي لم أعِ كيف وضعت العطر الذي طالما أحبّه... وكانت الذّكريات تدغدغني وتحيي آلاماً تحضر : ترى كيف ؟ أألقاه يحتاجني امرأة بصفاتي ؟؟ وقد كنت أحتاجه رجلا يتبنّى كلّ مقالاتي...؟

أيخرجني من آلامي ومأساتي ؟ ترى يتقبّل جنوني ويظلّ سنة عباداتي... أمّ تراني أقتلعه نزفا ساكنا في كلّ مساراتي...؟!

❖ ❖ ❖

غفوة

❖ ❖ ❖

أخذت العصافير ترسل زقزقة مسترسلة... تنبيء بقدوم فصل الربيع، رفعت رأسي إلى السّماء فإذا هي صافية، ترى بعض السّحب العابرة هنا وهناك... امتدّ بصري إلى الحقول الواسعة. فإذا هي مكسوة بالزّهور الخضراء والصّفراء والبيضاء، حقا إنّه الرّبيع، الطّبيعة بأسرها حلّة جديدة, فراح الجميع يرقص وينشد نشيد الربيع...

في تلك الأثناء نظرت إلى وجهي في قاع البئر, فإذا هو ليس بالوجه الذي أعرفه, إنّه غريب عن ذاتي. رحلت بناظريّ إلى الملابس التي أرتديها فإذا هي مرسلة في السّواد القاتم. ثمّ... غاب عنّي كلّ شيء؛ بل أنا التي غبت عن كلّ شيء حولي... حينها أغمضت عينيّ ثم فتحتهما فإذا المكان الذي أقف فيه أعرفه : نعم؟! هذا المكان الذي طالما ترددت عليه وما إنّ تقدّمت خطوات حتّى أحسست يداً تمسك بيديّ!! ثم تضغط عليهما، حينها أيقنت أنّني طالما أمسكت بهما.. ثمّ راحت تعبث بشعري فعرفت صاحبهما دونما نظر إلى وجهه... صحت : "أ"... فهمس قائلا : «أحبّك».

حملنـي بين ذراعيه إلى أعلى حـتّى خلت أنّ العالم بـأسره يركع تحت قـدميّ. . جذبني إليـه بكلّ حنان ورفق حـتّى لامس جسـدي وكأنّنا جسد واحد، وكاد يقبّلني، ثم أرسل تنهيدة عميقـة. . .

حـينهـا لم أتمالك نفـسي، فـألقـيت برأسي على صـدره ويداي تتحسسانه من رأسه حـتّى أطراف أصابعه، ووجدتني أصيح والدّموع تغمرني : "لماذا لم تقـبّلني ؟ ماذا تنتظر؟ لطالما كنت أرتعش بردا إلاّ من دفء ذراعيك. . .

أما آن لـي أنّ أحيـا الحقـيقـة ؟ لطالما، خلتني في مخـاض وفي أحشائي يقـبع حبّك الذي يكبر في كلّ ثانية. . . لطـالما جمعنا عش صغير في أعلى الجبل البعيـد حتى صار أعظم وكر يجمعنا. . . لطالما ركض أطفالنا في الفيافي الخصبة وعلت ضحكاتهم حتى دوّى الجبل واهتزّ تحت أقدامنا. . .

ثمّ سكت فجأة لأجد السّكون قد غطى المكان إلاّ من أنفاسنا. . . والتحم جسدانا ولم أعد أشعر بما حولي. . .

الآن! كل الأحلام ستصبح واقعا وحقيقة. . .

ســرنا مــعــا في طريـق طويلة. . . كـانت الأزهـار في كلّ الاتجـاهات. . . والعـصـافـيـر تزقـزق والميـاه تجـري مـنسـابة على الجداول. . . حينها شعـرت بالنعاس. . . وفي صمت نظراتي أخبرته بذلك. . . فمدّ ذراعـيه وغمرني بدفئه. . لم أنم طوال حـياتي كتلك اللّيلة. . . إذ كـانت يداه تعبث بشـعري تارة، وتدفيء جـسدي تارة

أخرى. . . وكانت دقّات قلبه كأنّما تحرسني طوال اللّيل حتّى الصّباح

استرسلت في إغماض عينيّ، لم أشأ للّيل أنّ يرحل، وددت لو يمتدّ أكثر حتى أظلّ بين ذراعيّ حبيبي، فجأة توقّفت يداه عن الحراك.. لأجدني في غرفتي وكلّ أفراد الأسرة حولي : جلت بناظريّ فإذا كلّ شيء في مكانه. . . نظرت إلى ملابسي فإذا بي أرتدى ملابس النومّ، نظرت إلى أمّي استفسرتها عمّا حدث، فإذا دموعها تنهال قبل أنّ تتكلّم، لم أشأ معرفة ما حلّ بي. . . فكلّ ما علق بالذاكرة آخر مرّة، أنّني رحت أجلب الماء من البئر ونظرت إلى وجهي. . .



مع الأيام

مذكرات مدرّسة

❖ ❖ ❖

كانت تسير بخطى ثابتة عازمة المسير، أقلّت سيّارة الأجرة وراح فكرها يسبح في عالم الخيال والبهاء، فجأة أشارت إلى السّائق بأن يتوقّف في المنعطف القريب، خفّض من سرعته إلى أنّ توقّف، بينما أنزلت هي الساق اليمنى وتلتها اليسرى وبكلّ ثقلها أمسكت باب السيّارة ونزلت. . .

بدت كأنّها هيكل يترنّح بين الهضاب والأشجار الملقاة هنا وهناك. . أشجار الصّنوبر معرّشة، أسوار من التين الشوكيّ. . . تنهدَت تنهيدة من أعماقها وغاصت في كلّ ماحولها. . . الطريق والأشجار والمزارعين. . .وهناك في أعلى القمة يرفرف علم البلاد المنتصب وسط المدرسة. . . راحت تحث خطاها على المسير، عليها أن تصل في الوقت المحدّد فهى دائمة الالتزام بالمواعيد. شيئا فشيئا شرع فكرها يبحر في اللاّمجهول. همس فؤادها :

- لابدّ أنّ أصل كما اعتدت ذلك.

رفل فكرها في الأمس القريب حتّى ارتسمت أمامها صور

تتراقص، وتنامت إلى سمعها أصوات ألفتها منذ سنوات. . . لقد كانت تستوقفها بعض الأصوات سائلة بنبرة ممزوجة بالحب والتقدير في آن :

- آش حوالك, وينو آكا الطفل"

هى أصوات بعض الأهالي السّائلين عن أبنائهم بالمدرسة؛ لكنّ مشاغلهم اليوميّة تلهيهم عن الاهتمام بفلذات أكبادهم.

- «لا بأس، هم أولادي فاطمئنّوا» هكذا كانت تجيبهم دائما. . . ويستمرّ مسلكها منتصبا في شموخ أمامها. في حفيف الصّباحات الباردة كانت تسير لربّما اندفع نحوها كلب ثمّ تراجع إلى الوراء. . . فهم قد استأنسوا بها فتبتسم وتمضي.

ذات يوم أضاءت المدرسة بالنّور وارتوت بالماء. تذكره يوم علت فيه زغاريد النّسوة وابتهج أطفالها فانبعث الأمل مشعا في كلّ الأهالي وقاسمتهم فرحتهم حتّى أنّها أكلت معهم الكسكسي باللحم الذي ذبحوه "زردة سيدي صالح" . . . إنها تلك الكتل من الأحلام والأماني اللاّمتناهية، هى تلك الرّغبات الجامحة والخيالات الورديّة تحمل بين خلجات نفسها الكثير والكثير. . . بأن تعلّم أطفالها كلّ معانٍ سامية وبأن يرسموا رسوما بديعة. . . وتحاول دغدغة طفولتهم بأرقى المعاني والعبارات. . .

هى تلك الكتل تجدها تتأبط حلمها وتدسّه بين جنبات أطفال يتوّسلون العطاء، وهى متخمّرة بالعطاء. .

اليوم مـا تزال تمضي في هذا الطريق الوعر وبانـفلات فكرها تكاد تطوي عديد المسافات، فتنظـر حولها، ثم تلتفت لترى كم قطعت وكم بقي لهـا. . . وتعود تدغـدغ ذاكرتها فـتذكـر أنّها لسنوات خلت كانت تسـير مع بعض الزّملاء والزّميـلات ببعض الأغاني الحـينيّة وبعض القصـائد والأشعار التي لاتزال راسـخة منذ الطّفـولة، فـمن "ديكي ديكي أنت صـديقي. . " إلى "أنا الفـتى النّـظيف. . . " إلى «قم ضع يدك في يـدي، قم نحـمي غدك وغدي. . . " ثمّ تعلو الـقهقهات وتطوي المسـافة. . اليوم تمضي ويتوالد بداخلها حلم جديد فتطوي المسافات وتمضي. . .

❖ ❖ ❖

اغتراب

❖ ❖ ❖

. . . وصل أخيرا مسكنه، ألقى بكاهله على الأريكة الرثة، والماء يقطر منه قطرة قطرة، لقد كان مبللا بكامله إثر هطول أمطار غزيرة لم تكف عن النّزول، بينما ظلّ هو يمشي رويدا رويدا لا يعبأ بها وهي ترتديه كطير جريح ينزف. . .

نعم كانت قطرات المطر تلامسه فتنفر من جسده الحار حتّى أحمتها دماء تخرج منه فتتناثر هنا وهناك. . . الأهمّ أنّه عانقها بلهفة. . .

هذه هي رغبته الجامحة بأنّ يسير مع وقع حبّات المطر مترنحا متمايلا، لطالما أضناه نداء رغبته هذا، ولم يكف. . . فتتفاقم الرّغبة مع وجهه وحاجبيه الكثيفين وشعره المنسدل على كتفيه ولحيته المتدلية وخطواته المتزّنة ظلت كما هي. . . ولم ستشكل ؟. . .

ران الصّمت، نظر حوله. . . الأوراق تغادر أصولها، تتمايل مع لفحات الرّيح، المارّة يهرولون قاصدين مأواهم للاحتماء من البرد والمطر، السّيارات يقلّ عبورها. . إلاّه، قابع في هيئته ومشيته المتزنة، فجأة أفزعه صوت قريب منه :

- آه! هيّا عزيزي غيّر ملابسك، لقد تبلّلت تماما"

- لكن ماذا تفعلين هنا ومن أنتِ ؟

أجابها، ثمّ أعاد كاهله إلى الأريكة. حاول بعثرة ذاكرته، لم يجد شيئا، اغتمّ ثمّ آثر الركون للصّمت من جديد.

ما عساه يجد؟! بل لماذا يحاول البحث في الذّاكرة ؟!

أليس الهدوء أفضل؟!

لقد رحل إلى غياهب الوجود، غـاص في أغوار الكون عساه يلج الحقيقة.

- هيّا! لقد حضر الفطور الذي تحبّه ؟.

كان هذا الصّوت يزعزع صمـته الأوحد أحقّا لا يذكره ؟؟ إذن من تكون ؟ لم يكن إدراك حقيقته بالأمر الهين عليه.

الآن تساوت كل المتناقضات : أنا أم أنت ؟ الهنا أم الهناك ؟

تنهّد من أعماقه همس: سيّان لديّ.

ومن جديد قاطـعه الصّوت : لا تقل هذا عزيزي سـوف يعجبك الطّعام هذه اللّيلة.

مرة أخرى صوتها الحنون والرّنان يهزّه هزّا، لم يتباطأ هذه المرّة، أسرع إلى المائدة يلتـهم كلّ ما تقع عليـه عيناه، كـان يبلع الطعام علـى عجل ودون تلذّذ. فرغت المائدة تماما، لـم يشعر بالشبع، لمحهـا تتأمّله. خجل من نظراتها، إنّه لم يدعها لتشاركه الطّعام. . . تراجع إلى الأريكـــــة.

قدّمت إليه الشاي فأحرقته الكأس، رمى بها أرضا، حملقت به ثمّ غادرت الغـرفة. تركتـه وحده؛ بل تركتـه للهواجس تؤرّقـه ولأسئلة

تحيّره: من هو ؟ من هي ؟ ما هذا المكان ؟

كانت قـطرات المطر تلامس بلّور النّافذة فـتقـرع ماضـيه، حـاضره ومسـتقـبله، كانـت صور تتداخـل أمامه وأصـوات تقرب ثـمّ تبتـعد هناك... وقهقـهات... ترنيمات أصوات متـهدّجة.. وقطرات المطر أحسّها تناديه، أيقن أنّها همسه الأوحد وأنّه فصل الشتـاء...

❖ ❖ ❖

رحيل

❖ ❖ ❖

بسم الله الرحمن الرحيم:

و تراني أسرع الخطى الى ذات المكان الذي أحن اليه أو عساني أجد فيه ذاتي بين الفينة والفينة، في هذا المكان أجدني نبع معرفة لا متناهية أو سرابا يتجلى كأروع حلة. ذا مكان به من الذكريات عصور وعصور عابرات في نفس النزف ونفس الجرح...

هنا جلست يوما رفقة جمع من الآمال والأحلام والآن أيضا أجدني مع جمع من الأحاسيس والقرارات. أقر الآن ألا أطأه مكان سطر في قدري، وأجدني عنوة أحمل إليه اشتياقا وحنينا لا يوصفان. لكم ظل مزهواً بأحلى الآمال: هنا. نعم. جلست أنتظره سنين وسنين. هنا تشاركنا آمالنا و أحلامنا. ها هنا مر دون أن يراني. وتشتعل بداخلي حرقة.

ذات مساء رحل فكري لعالم نسجته أناملي خلسة عن الزمن. واشتد ساعده الى أن عانق الواقع فجُبل من يومها على الصمت ..... يوم رحل حمل معه أحلام غد مبشّر لا يعرف سوى بالقوة والعظمة فلطالما استمد منها صدقا وعزما لا يقدران إلى أن حط فجأة في ميناء الكذب والنفاق. أرسى أشرعة لا أعمدة لها فكاد

ينهار. . . لكنه تماسك فآثر الصمت وقد نسج له القدر صدفة أغرب من الخيال وأجاد حبكها، فإنّ تبني آمال وأحلام وردية في دنيا اللاوجود فقط في خيالك وحدك، ثم تنهض فجأة على صفير القطار ينذر بالرحيل فتلك الطامة الكبرى.

وأن يحملك القدر دون موعد الى فضاء الحقيقة، وأن ترى حلمك يتحول سرابا فتلك أكذوبة أعظم للحب الأزلي . . . . . حينما نسافر على متن مركب الواقع والأيام بل وتمضي في السنين . . . . دونما مشاعر . لا أمل و لا يأس. لا متناقضات، فقط تمضي لأنه يتحتم عليك المضي. . تمضي وراء موكب يشّيع جثمان حلم تحطم وآمال تلاشت. ويُلقي بها خارج حلبة الواقع. . مرة أخرى تمر عصور وعصور وتقف فجأة لتراك فارغا. نعم وجدتني لاأحمل شيئا: جوف خالٍ وفكر خال، فتكاد تقتلني الرتابة حتى أصرخ بكل نزف وبكل جرحٍ ظننته يوماً قد اندمل. أصرخ معلنة قرارا. لن أظل فارغة، سأبحث عن شيء يملأني أحاسيس، أملا أو يأسا، خوفا أو أمنا، حزنا أم سعادة . . . . أخيرا أعلن مصالحتي مع ذاتي التي هجرتها يوما عندما التقينا. فلقد هجرت ذاتي يوم ملأت من محبتك ذاتي فسرت فيّ سريان الدم في العروق وزادت غربتي حينما انتفخت أحلاما وأماني من السراب مأتاها والى السراب مأواها. .

وفجأة فتتها بكل براءة وشموخ حتى صيرتني جوفاء لا شيء معي. لا أحلام و لا قرارات . . . . و ها أنا أعلن أنك لم تكن سوى ومضة مرت فتلاشت ذكراك مع زبد البحر . . . ألا يا معشر

البشر اشهدوا مصالحتي مع ذاتي ومرافقتي لها عبر السنين، لن استمر جوفاء فالآن أنا أحمل بين أحشائي الأمـل واليأس معا. أحمل الفرح والحزن وكل المتناقضات، إنني أحمل بين أحشائي إنسانيتي" . . .

طوت الرسـالة ووضعـتهـا على مكتبـه لجانب مـزهرية بلا ورود وضعت على المكتب مـنذ الأيام الأولى التي ولجت فيهـا هذا البيت، ألقت نظرة أخيـرة إلى أركانه ركنا ركنا، حـملت حقـيبتـها وأغلقت دونهـا البـاب. مضـت في الشوارع و الأمـطار تصـحبـهـا في كل خطواتها، لـقد أدماها الصـمت تلو الصمت، لقـد ملت العطاء تلو العطاء والحيرة تدوخها: أتراه يحبـها طول هذه السنوات كما كان قبل الزواج ؟ امتلأ رأسها بأسئلة جياشة ثم دغدغها الانكسار:

- عله كان يمثل الحب طوال فترة الخطوبة ؟ إذن لماذا تزوجني؟

لقد كان يقتل الأحلام فيها، قضت سلوى عشر سنوات في منزل صغير حذو البحر و الرمال والشـمس الساطعة، مع الأستاذ فتحي، انتصب المشهد المؤلم الحزين أمامها:

- أرجـوكِ ابنتي المدللة فكري قـبل الموافقـة، إنهـا عِشـرة عمـر والأفراح و الأحزان ستنشطر بينكما.

- لا تخشِ شيئا أماه ،أنا متأكدة بأنه سيغمرني بعطفه ومودته، أنا متأكدة بأنه يحبني حد الجنون.

- أخالك أنتِ المجنونة، المهم وفقكِ الله.

مضت عـشر سنوات وسلوى لم تسعـد بهدية ولو ببسمـة تعرش صمتها العظيم فانتصب جلادا وهى المدللة. . . همست:

- كأني أرنو إلى ما وراء الشمس.

ثم راحت تؤنب ضميرها، تعاتبه حد الخذلان، انتصب عمرها سوادا قاتما، كأنه لظى الصيف أحرقها فسالت أيامها الماضية في رسوم معتمة وأحزان دافقة، لم تسمع منه سوى كلمة واحدة: لا.

- عزيزي، ما رأيك لو نخرج سويا للطبيعة الغناءة. إنني اشتقت السير بجانبك في الطرقات و تحت الأشجار. ثم تفزعها نداءات الرفض القاسية: لا

ومرة أخرى تسأله الخروج إلى مدينة الألعاب، تحن إلى الأراجيح تهزها إلى الأعلى حتى تحس وكأن العالم يقبع تحت قدميها فتصدها سهامه الجارحة:

- لا، وكفي عن التصابي.

كانت ذاتها تشتاق بعض نسمات طفولتها الهانئة وشبابها الراقص لكنها تصمت.

عشر سنوات والصمت يلبسها إزاراً أسود. الأحلام تولد ثم تندثر شيئاً فشيئاً... وتتلاشى.. لأجله دفنت حلما عظيما بأن تواصل المرحلة الثالثة من تعليمها الجامعي، لأجله دفنت حلما جميلا بأن تكون أما كباقي النساء و كان يرفض فكرة الإنجاب ... و الأبوة.

ذات خريف جاف سارت بين المغازات و الأسواق، سارت مكبلة بحلم مدسوس بين جنباتها تسرق النظر إلى ملابس الأطفال، الدمى، الألعاب والأحذية المزركشة فتسللت الفرحة إلى فؤادها وتنامى إليها صوت طفل تناغيه في دلال وحنان فيتلوى فوق السرير وهي تلبسه

ملابس العيد ثم يتمطط وهي تلحقه بابتسامتها العريضة ورحابة صدرها... ثم يفزعها صوته الصلب النابع من شعوره بالعظمة والقوة:

- هيا، أعدي العشاء فورا.

وتتلعثم أحلامها. تخافه، فتندثر حال انتصابه هيكلا لجلاد القصر الشوكي...

همست والأمطار تبللها:

- كيف لي بذلك الصمت طول سنوات طويلة؟ !

كان قرع الأمطار ومعانقتها لجسدها يجدد الآمال والطموح فيها. عبرت عديد الأنهج والشوارع . رفلت في الكون المغمور حياة ولشد ما تشتاق ذاتها للحياة !

كانت سيارة تتبعها ولم تنتبه اقتربت منها فظهر صاحبها، وجه مألوف لديها، لكن الذاكرة باتت بلا تذكر. توقفت قليلا، رأته وقورا أنيقا يتربع صالون السيارة في أنفة، ثم واصلت المسير . لكنه نزل السيارة ودنا منها قائلا:

- كيف حالك سلوي ؟ لشد ما بحثت عنكِ.

كان هذا الصوت ينبعث من أعماقها ويستقر في أذنيها لكن ذاكرتها بلا تذكر، كانت مسلّمة كل شيء ... أمسك من يدها اليسرى الحقيبة ثم أمسك بها بكل ما أوتي من حنو ... هتف إليها: أشتاقك، أشتاقك كثيرا.

مضت سيارته تعبر الشوارع والطرقات، تقضم المسافات، وكانت

لهفتها متزايدة لمعانقة ماضيها البعيد. أوقف السيارة والأمطار ما تزال تتساقط، دعاها لفنجان قهوة، استقلا ركنا في المقهي أيّن يسهل مراقبة الغادي والرائح، شرعت في تأمل المكان: الألواح الزيتية، السقف، الألوان، الكراسي، المزهريات . . . كل شيء بدا لها جذابا ثم رأته يتأملها: كان متلهفا وكانت مغتمة. قاطع صمتها:

- أين كنتِ ؟ علمت بزواجكِ، فكم أطفالك ؟ هل يشبهونكِ ؟

- . .

- ظلت صامتة فواصل:

- أنا أيضا تزوجت لكنها رحلت. لديّ طفلين: فادي وسها، أتذكرين؟ رمقته بعينين حزينتين ملئا حسرة وألما، احتضن يديها اللتين كانتا باردتين كصقيع دام، وتابع من جديد:

- لابأس. أمازلتِ تكتبين الشعر ؟ أتذكرين سأبدأ الطريق من جديد ؟ كلما ذاقت بي أرددها. رآها واجمة لم تتغير ملامح وجهها فراح يفتش عنها بين تقاسيم وجهها: العينان واسعتان سوداوان، الشفاه رقيقة، أسنان شديدة البياض، شعر أسود منسدل على الكتفين ثم أصابعها الرقيقة عليها الطلاء الأسود أو الأبيض. فقط كانا اللونين المفضلين لديها وفق حالتها النفسية: الآن رآها بلا طلاء، فتسرب إليه الوجوم كأنه لامس مدى غربتها، أحسه مسؤولا عنها فبحث عما يزيح عنها المشهد الفاتر . . . وفجأة نهض لبعض الدقائق ثم عاد إليها يحمل كوب عصير فواكه وانبعثت من المكان موسيقي هادئة حزينة ثم أخذت في التصاعد وبعث الصخب في المكان، دنا منها ومن الخلف طوقها بذراعيه وبدأ يسقيها

العصير، سرى إلي أوصالها بعض الـدفء والحيوية، مد إليها يده ودعاها للرقص، تململـت :«منذ سنوات لم أرقص، أخـالني نسـيت الرقص». فغمـغم قرب أذنها: " سأذكرك" . في انبـعاث الموسيقى دغدغة لماضـيها الذي ظل مدفونا، اهتز جسدها أحسته بدأ يمزق الأغلال حلقة حلقة حتى داعبت الموسيقي روحها المرحة، الحالمة، المدللة. وأسلمت كل شيء ... كان منيـر هو ذاك الحلم القديم الذي وُئد يوم أعلن زواجه من ابنة عـميد الكلية. فارتحلت أحلامها الوردية اللامـتناهية، لكنها دائمة الفرح، لذلك انتصبت أمامها أحلام جديدة:

" أتعلمين إني أحببتكِ مذ ولجنا الجامـعة للترسيم، لمحتك برشاقة وخـفة تتـوسطين الأصدقـاء فهـتف فؤادي باسـمكِ... وانتصـبت صورتك أمام عيني لا تبرحني. "

... وسـارت مـعـه في طريق أوحـــد ... ورســمت أمـانـي فيـاضــــة...

- عزيزي فتحي غدا أذهب للجامعة للترسيم.

- لكنك تحصلت على الإجازة.

- نعم.لكني أرغب في مواصلة الدرب والحصول على الدكتوراه.

- ألست أنبل وأهم منها. انسي الأمر.

ويندس الحلم بين جـدران المنزل. ويكف القلم عن رسم خـوالج نفـسها، تتـوقف النفس عن البـوح، عن الحلم وعن الألم ... هنا كانت الرقصة الأولـى قد انتهت. صفق جميع الحـضور وكذلك فعل منير ولم تكن تعي كـيف رقصت ؟؟ ومن جديد انبعـثت سيمفـونية

بيتـهوفن السابعـة إنها تعـشقها. لـطالما كتبت أشـعارا على وقعـها، وضعت رأسهـا على كتفه وراح الجسدان يتـمايلان في تناغم لا متناه حتي التحما. . . ويفزعـها الصوت: "من ابتاعك هذه العطور ؟ إنها سيئة. لا تضعيـها مرة أخرى. إنه ذوق سيء . . . من أين لك بهذا الفستان؟ إنه لا يليق بك. . . أتخرج؟. . ومن سيصلح الامتحانات ؟ هذا طلب مجنون لصبية. . أتسمين هذيانك شعرا. . . ؟

الآن انتصـبت الذكريات أمامـها حزينـة وأليمة، فـقط هو سحق لذاتها. احتـقارا. تهتز صورتهـا فتخالهـا شبح امرأة: هى بلا ذوق، هى بلا عـقل، هي بلا صـواب تحاول مـسح الرتابة، تبـحث له عن التجديد والتـغيير. . . لكن. . . يعلو صـوت الموسيقى فترتحل مـعها آلامها أو بعضـها. تحتضن منير بكامل قواها وتهـتف هو من تحتاج. غمغم قائلا:

- أريد سماع شعرك، أطربيني قليلا كما السابق.

بعد عشـر سنوات تراها مشاعر منغرسـة عنوة عن الزمن. لكنها فعلا لا تجد شيئا. تراجعت للوراء . آثرت الركون للهدوء والصمت. اشتد قصف الرعد وومض البرق، حينها فقط لمح تجاعيد طفيفة تحت أهدابها، وبعض البياض لاح شعرها. تبسمت قائلة :

- الزمن، والعمر يمضي والحلم يمضي . . .

انتقل إليه الذهول والاستـغراب وسكنه الصمت الذي غادرها. . . حينها أحستها مطالبة بالحـديث واجتياح مدن الصمت عساه نواحا في مدن الصـمت فراحت تناغيـه: بيني وبين العشق مدارات وعـصور،

وأنيني. . .ازداد وقع حبات المطر وانـتشرت البهجـــة على مـحياها وواصلت: قد أبيتُ جـوفاء بلا مشـاعر بعد أن كنت حـبلي بأحلام العذارى، قد أرسو دونه للصعاب. . . قد يقتلني صمتا. . . قد أتقبل كلمات خرساء بلا أحرف، قد أتضور نزفا لسماع كلمة أماه وأصمت لأنه لا حول له ولا قوة في الأمر، لكن أن. . .

ران الصـمت من جديد، سـرى حـفيف الليـالي المظلمـة. انتظر مواصلة الحديث طويلا لكنها لم تتكلم، فـقال كالمتوسل: لكن ماذا؟ ما الذي حدث؟" وعـبثا حاول الولوج للحقيـقة. . . بدأ يبحث عن كلمات تسكن مـهجتـها فقـال: فادي وسهـا يحتاجـونك أما رقيـقة تحمـيهما وهيج الأيام وجلـيد الليالي. فكذلك شـعـركِ سينكتب في دواوين وستنالـيـن الدكتوراه و. . .

قاطعته قائلة: تنح فإن السماء سمائي . . .

فجأة انبعث عواء سيـارة الاسعاف والبوليس، عم المكان الفوضى والارتباك، ثم. . .

- أين رحلت ؟ كـيف اخـتفت من أمـامـه ؟ التهـمـته الأسـئلة وأرّقته. . .

. . . في الغد وهو يتصفح الجريدة اليومـية لمح صورتها وقد كتب تحتها:

مطلوب القـبض على هذه المجنونة الهـاربة من المسـتـشفى وقـد ارتكبت جريمة قتل لكل من زوجها وأختها في مخدعها. . .

❖ ❖ ❖

امرأةُ البلّور

❖ ❖ ❖

لم يهزها الصخب المتعالي، لم يحـرك سواكنها. كانت كتلة جليد في أعلى القمة مربعة بعـيدا عن الآهات والزفرات . . .انبرت تبحث عنها حـتى أضناها البحث . . .لكـن وشوشة طفـيفة راحـت تعبث بكبـريائهـا حتى عـلت. . . باتت دويا صـاخبـا مـتأتيـا من بركـان ظمأها. . . اندفعت من عليائها تهاتفه:

- أين أنت ؟

- مع أصدقائي.

- أتمني لو كنت بين ذراعيك الساعة.

- . . . . .

- لماذا تصمت؟

- الليلة لا . ربما يوم آخر. شرط. . .

تسلل السـهم إلى أوردتها فأرداها جـثة مبـعثـرة في كل الأماكن راحت تنزف والدموع سيـول جارفة تغسل وجهـها الغائر منذ سنوات خلت . . .

الليلة رائعة، الناس في لهوهم يسعدون ويتلذذون. . . لكن مذاق وحدتها حنظل. . كانت تعتلي ركوب العظمة والكبر وعيناها تقطران وحشة وغربة. كان الحزن مريعا يطوقها حد الاندثار . . الليلة مقمرة. . . النجوم تتلألأ، لكن نيزكا واحدا كان وحيدا. . . تأملته على عجل وومضت. .

مضت تختلف في مجاري الحياة، تقضم حيرتها بين الفينة والفينة، يلتهمها الندم:

- لماذا تلوم فؤادها المخضب بالوحدة ساعة طلبه الإغاثة؟

كان كبرياؤها يؤنبها: كيف تبوح لرجل. وإن كان زوجها بخلجات نفسها المطوقة بالعادات و التقاليد ودروب الحياة؟عساه السير أضناها؟ تشكلت الرسوم منتظمة واضحة، إنها لم تخلق إلا للعمل وإن كانت بها بعض ملامح الأنوثة. طوعت نفسها لاغتصاب ضعفها فارتحل عن أزمنتها زمن العرى والغصب . . .

- سيدتي. . الشركة الألمانية أرسلت فاكسا، لقد وافقت على مشروعنا، وتطلب بعض المعطيات . .

- في وقت لاحق ليس الآن. .

ثم أقفلت الهاتف الخلوي. . . في هذه الليلة المقمرة. . . الجميع يطربون لبهاء الكون ورونقه و هي يلاحقها العمل. . و لا غير العمل. .

اندفعت بسـيارتها نحـو الخلاء. . بعـيدا عن الضوضـاء والصخب .كانت أسراب العشاق تعبر مختالة في مشيتها، توقفت ثم نزلت من سيارتـها. . رأتها على ضفـاف البحر، انبعث هديره ينعـش روحها العطشى. . .

خلعت حذاءها وشرعت تجري كـمن يسابق الريح، كانت أطراف أصابعها الأمامية تنغـرس في الرمال برفق . ثم تقفز إلى الأمام كأنها فراشة جذلة . . .فجأة مدت ذراعيها تحضن الريح و هي تصرخ:

- أكثر. . . أكثر. . . هيا عانقيني أكثر .

ألقت بجسـدها العليل إلى الرمال، مضـى بعض الزمن والصمت يغزو المكان سوى بعض الأمواج التي ترتطم بالصخر فتصير فتاتات لا متناهية. .تحولت صخرة لا تفقه الكلام، اجتاحتها الدموع ومن جديد انتصب كـبرها ينهـرها ويزجرها : " كـيف تعلن احتـياجـها لرجل؟ كيف؟ و لماذا؟ "

اصطدمت عديد الأصوات صارخة :

- هلمي نصنع مراكب عشق .

- هيا .انتزعي مرافيء الوجد والبسي درع العمل والفوز.

- هلمي نراقص الأحلام الوردية .

بغتة نهضت مثقلة الخطى مغتمة المشاعر. . .يحذوها الألم معتصرا في خبـاياها و الصدى يتـعالى بداخلهـا ينشد الحنو والـدفء. كانت

تنشد بعض الـدفء من الزوج المغترب عنهـا لردح من الزمن، لكن، أين تراه يعـتنق فن اللظى والجـدب أرهقهـا ؟ تناديه . تطلبه صـدرا يضمـها بين أضلعه، لكنه يتـوه في مسارات دونهـا . . صارت ترقص على وقع موسيقـى صاخبة توقظ سكونها وتحيرهـا حد الانصهار في اللاوجود، ليست شابة مراهقة ولا ابنة العـشرين، لقد تعدت عقدها الرابع منذ زمن، لكن ما الضيم أن يشتاق فـؤادها رقصة جنونية ؟ ما الضعف إن صرخت أطرافـها : "نحن مداعبة في الـليلة المقمرة هذه؟ " صارت ترقص كفرس جامح حطم اللجام وهدم السلاسل. . .

مضى من الليلة ثلثاها : لمحت ساعتها، ثم طفقت عائدة إلى بيتها حتى تستفيق من غـفوتها . . .عادت تستعد لخفيف صـباحاتها المقبلة . . .حين بلغت غـرفتهـا كان الهاتف يرن ، رفـعت السمـاعة فكان صوته مـبحوحـا عائدا من أزمنة غـابرة . . .سمعت هـمس توسلاته المضنية :

- أرجوكِ اعـذريني عـزيزتي ، سأحـضر بعـد قليل .بل أنا في طريقي إليكِ، إنني ملتاع و الغيـرة تأكلني حد الاندثار، آسف خلتك قـادرة على الانصهـار في العمـل دوني . . .عزيزتي أحـتاجكِ حـد الجنون. . .

وضعت السماعة، همس وجدانها : أدمتني الشوارع و الطرقات. ألعق من الذاكرة لقـاء جنونيا، فتـشتعل الوهيـجة بداخلي. تحطمني

المســافات والأزمنــة . متــاهات أخــرى. . .أغوص في أســئلة حــتى الشفق. وأدور ثم أدور مع الهــواجس حد التآكل .تكســرني الزفرات بقايا مرايا ، أنجلي سرابا في وادى العطاء ، تؤخرني أحلامي حتى تنتفض النوارس. . .الآن على مواصلة دربي. . .

أوشكت الليلة المقمرة على الرحيل إذ انبعث نور الفجر. . . .

❖ ❖ ❖

وجه بلا وجود

* * *

نهض ذات صباح يختال في مشيته. . . تربع الكبر في وجدانه فغمره حتى أفاض الوهاد. تسمَّر أمام مرآته يعبق ألقاً، على ألق كان ينشد بعض الحقيقة. ارتسمت على قسمات وجهه ابتسامة ساخرة من كل ما يحيط به. ابتسم بيقين قاطع أنه صاحب الوجه الصبوح. له عينان واسعتان وحاجب كث. شارب يزيد صاحبه أنفة وعظمة، هو جذاب، ملك وجها ذا قسمات تهديك الشعور بالراحة والطمأنينة. ارتدى سرواله وحذاءه الرياضي وقميصه، ثم تأبط محفظته المثقلة بالكتب والمجلات، لمح الساعة الحائطية، ثم ألقى بقبلة لذلك الوجه الصبوح من خلال مرآته وخرج.

السيد المغرور، المكنون بثقة مفرطة بذاته، ليس غرورا، ليس تكبرا لكنه فرس اعتلاه يصهل ويسابق الزمن.

هو السيد ما بين السماء والأرض، لن يطأ الأرض الخصبة صاحبة الجبال والتلال، لن يطأ أرض الحالمين المتشردين و لاالكادحين التعساء الباحثين عن قوتهم دون كلل أو ملل، إنه لن يطأ أرض الصحاري والنخيل أو البراري الموحشة. ثم إنه لن يطأ السماء المعتمة و لا أديمها إلا من السحب المتناثرة هنا وهناك. . .

لن يطأ السمـاء المتغيـرة المتحركـة لا لشيء إلا لأنه على يقين من مركزه ومكانتـه المرموقة، فهو ثابت لا يتغـير، وهو واضح المعالم لا ينتمي إلى عالم المتغيرات. .

أمضى سنوات يتخبط في وادي المعارف، ينهل منها بقدر يسمح له أخذ مكان؛ بل هو أفتك مكان له ضمن مجتمع راق.

ظل السيد طوال سـنين ينهض كل صباح. . .يبتسم بـكبر، يتأبط محـفظته ثم يغـادر منزله. لم يكن يشعر بـالوحدة يوما لأنه اخـتار الكتاب أنيسا ورفـيقا له. لم يهتم بالعائلة ولا بطقـوسها، لم يتوقف يوما أمام مرآته ليرى كم أمضى من السنين وكم سيمضي؟؟

رجاء. فلتعلموا أنه يوما ما وضع عطرا يتطيب به فهو يحمل أطيب العطور: علمه. . إنه لم يغير يومـا من هندامه فلن يفعل ذلك لأنه كان يرتدي لباس الورع والتقوى ولاتهمه المظاهر. .كل ما يهمه لن ندركه.

قرر مرة الارتبـاط بشريكة تؤنسه في وحدته ،ولأنه كـان صريحا حد التجريح، ومؤمنا حد الورع، فقد خاطبها منذ الوهلة الأولى:

- لن أضيع الوقت، سأتزوج بك، رأيتك مناسـبة تماما، سنتزوج في الصيف المقبل. قطعا ستتشارك في حساب بنكي واحد. وطبعا أنا سأسحب من الحـساب كلما أردت ذلك. . .لأنه واثق من نفسـه فقد دعاها للمرة الثانية منصِّبا جبروته حكما للقائهما فأعلن:

- إنني لا أملك المال الكافي لشـراء كل ما تحـتاجـينه عند الزواج فـعـولي على نفـسك. ثم لا تنسي إنـني أحب العطورالغـاليـة. . .

وامتدت أوامره ونواهيه كأنه الجلاد والحب مملكته. استمر غروره حد التغطرس والجبروت فصرخ في وجه الخطيبة:

- إنني رومانسي، فاكتبي لي حكايا عشق وهاتفيني دوما، فمصاريفي لا تتحمل ذلك...

إذن السيد قد اعتلى عرش الأوامر والنواهي. تمسَّك بالثقة المفرطة، مركزه لا يسمح له بمهاتفة خطيبته إذ يعتبره ضربا من التنازل عن كرامته ومسا بموقعه.

ظل يعلو إذ تعالى الصدى بداخله...ظل يعلو والحال أنه أرفع من سكان الأرض وأثبت من أديم السماء. انتفخت أوداجه. وعلا ثم علا، اهتزت الأرض ارتجت تحت قدميه. ثارت الجداول والأنهار. انسابت في ثبات وانبرت تحمي الأتربة من روائحه. و اغتمت السماء. تهدجت غيوما متلاشية واجتاحت روائحه كل المدى، صرخت اللقالق ضاجرة؛ لسنا هنا.

هبت الريح تدفع الأنين إلى البعاد... تلوح بالأريج: لسنا هنا...

صحا ذات صباح يختال في مشيته. تسمَّر أمام المرآة:

- أين وجهي؟ أين سحنتي؟ وجثى على ركبتيه أمام عرش الحالمين، وانبرى يهز قوائمه هزا صائحا:

- أرأيتم كيف أحيا بلا وجه في ضباب الحلم؟

❖ ❖ ❖

أحلام زجاجيّة

❖ ❖ ❖

كانت تصرخ بأعلى صوتها، أفزعت الجميع فهرعوا إليها لاستبيان الأمر، تسمَّر الجميع في أماكنهم عندما رأوها بتلك الحالة. كانت أقرب منها للجنون من المرض أو الألم الذي قد يجعلها تصرخ...

كانت الساعة الثالثة صباحا، وكان البرد يلفح الخدود فيتسمَّر الدُّم في العروق. عوت الريح وعوى معها ألمها المتّقد... سافرت أحلامها الوردية تجوب الجبال والبحار. سافرت بعيد أيّن لا إنس و لاطير.. أيّن لا صخر ولاشجر، سوى الزفرات المكتنزة من زمن ولّى وانقضى، كان ألمها الدفين أعمق من شعورها بالألم المرتسم فوق أماكن متعددة و مختلفة من جسمها الهزيل، لم تكن طوال حياتها سوى بؤرة الحياء.

كانت تخشى كل ما يحيطها حدّ الرعب. فحينما تسعد كانت تصمت، وحينما تيأس كانت تصمت؛ بل عساها تصمت حتى عندما تنزف تحلم، وكان همس بداخلها يكسبها قوّة وعظمة يبدوان عليها أمام الجميع...

ارتخى الهمس وبات صراخا يهزّ المكان أينما تحلّ.. تسمّر الجميع ينظرون إليها تنضو وتتلوى والدماء تفرّ من ذلك الجسد المغلول المكبل

طوال سنين، فتقشعر الأبدان عندما تلمحها زهرة تذبل، تفقد أريجها.

هيمن السكون في الحي إلا صوتها الضاجر من بعض العادات والتقاليد ومن عجزها.

نعم! إنها ولزمن قريب كانت الفتاة الحلم لكل أبناء الحي: إنها " كاميليا " عشق كل شاب، «كاميليا» همس الوليد والفرحة البريئة تنتصب وشما على الحي المتواضع، فيفتخر الجميع بها، إنها اللحن الذي لم يسمع بعد، تلمحها كل صباح تمر والحياء يطوقها فيعبق أريجها وتفوح بسماتها بلسما للجميع:

- ما شاء الله، الله يقوي سعدك .

- هكّ التربية ولا بلاش.

هي ذات خطوات متوازنة، صوتها كتغريدة شحرور أو هو همس متأت من زمن غير ذي الزمن، هي كعروس البحر تعبر الأزقة فتشرئب الأعناق وتحدق الأعين عسى تستمتع ببعض جمالها...

قالت الخالة " زمردة " :

- و الله لقد اجتمع جمال الصورة بجمال الأخلاق.

فتبتسم والدتها «خديجة» افتخارا واعتزازا بابنتها الوحيدة وكيف لا؟ وهي من سهر على تربيتها بمفردها حينما كان زوجها في بلاد الغربة يكد ويجتهد منذ زواجهما ...و تمضي السنين محملة بالفواجع والأفراح..

تتحول "كاميليا" إلى أرق وحيرة مرتسمة في أعين سكان الحي.

تبيت الفجيعة والفزع كل ليلة وتتحول الهمسة إلى صراخ و عويل ثم إلى ندب فتمزق ثيابها و تهشم كل ما يحيط بها تهشيما. و لاتهدأ إلا إذا حقنت. فتفيق لتراها تغرق في دمائها، ويتلاشى من بين شفاهها السؤال لمعرفة ما حلّ بها.

- أتكون تتعاطى المخدرات؟!

- استغفر مولاك يا حاج.

- و لكن...

تستمر الحيرة تؤرق السكان الطيبين فيما تستسلم هي للراحة حتى الصباح..

لا أحد يعلم سر تحول عروس البحر ذات العينين الزرقاوين الواسعتين والشعر الذهبي المنسدل على الكتف إلى جثة طمسها العذاب، لقد اختفت نظرة براءتها و رصانتها إلى أشياء مختلفة متضاربة تمام الاختلاف ويتيه صمتها إذ يصير نواحا كل فجر، وتنقلب كذئب يعوي أو كفرس يصهل يرفض اللجام.

لقد تحولت سحنتها منذ وفاة والدتها «خديجة» وابتعادها لردح من الزمن عن الحي، لقد غادرته بعد أن أنهت دراستها الجامعية وحصلت على الأستاذية في علوم الصحافة والأخبار.

يذكر أهل الحي تلك الليلة الحلم أيّن راح الجميع يرقصون ويهتفون والموسيقى الصاخبة تهز الحي بل الأحياء كلها... كل الأفواه تبسمت، كل البطون قد شبعت، إنها أجمل ذكرى رسخت عندهم، بيد أن الحسرة والأسى قد تسربلا في النفوس:

- ما الخطب؟

لا أحد يعلم عمق الأنين ولا الجرح الذي ينزف بداخلها. .لم يعد للشهادة معنى، ولا لعملها معنى، وإن كان رسالة نبيلة في المجتمع.

- اسمعي «كاميليا» لقد اختارتك جريدتنا كمراسلة لديها في مديينة «كان» الفرنسية لأنك قطعا الأجدر.

لا أحد يعلم أن ذلك القرار المحمل بكثير من الاحترام والثقة هو ذاته القرار الذي سيغير مجرى حياة الفتاة النشيطة والصادقة والرصينة. .

كانت الأضواء في" كان" مبهرة، كانت مدينة زجاجية الملامح تنبعث منها موسيقى تدغدغ الحواس وتسافر بك إلى أحلام وردية، وكانت «كاميليا» فكرا شغوفا باكتشاف سحر المكان وعذوبته، وانبرت تعلن عقلانيتها اللامحدودة: " لقد حضرت للعمل ولاغيره ".

وفي خضم العمل التقته. كان جنيّا يسكن خيالها فالتقته على أرض الواقع. حملها إلى فردوسه على متن أحلامه المتماوجة ودروبه اللامتناهية. أبحرت إلى عالمه تنشد بعض السكينة دون أن تهتم باختلاف القوانين حيث كان جزائري الجنسية.

مضت مترعة بالآمال والطموح الجامحة، و لم تفق من حلمها إلا ساعة تخبط الجنين في أحشائها:

- عزيزتي، يجب أن أغادر إلى بلدي الجزائر لأعد الوثائق اللازمة لزواجنا، وسأطلبك للحضور هناك حالما أنهي الوثائق.

- ألا يكفي زواجنا هنا ؟

- قطعا عزيزتي. لكن يجب إعلانه في بلدي حتى أضمن لك حقوقك وطفلنا.

وتظل «كاميليا» وجنينها تعدّ الليالي والأيام وحيدة، بحلمها المكبل. تنتظر... وتمتد الليالي إلى ما لانهاية...

وتضيع الأحلام في دروب مجهولة. ثم تنتظر وطفلها الذي صار ابن بعض الأشهر. تقضم الحيرة، تبلع الخوف فيؤرقها و لاتفيق، تعجز عن الكلام. ما عساها تقول؟ والنواميس تلفظها. لا شيء يدل على أن لوجودها معنى ولا لطفلها من دليل. وتفيق ذات صباح على حقيقة كطعم الحنظل:

- لقد تعرض زوجك لحادث أليم يوم مغادرته ففارق الحياة.

كان ذلك الطفل البلسم إلى حين...

ذات يوم نصحتها صديقتها:

- لِمَ لا تبحثين عن عائلة «ابنك»؟ قطعا ستساعدك السفارة.

و تمضي «كاميليا» في البحث يحدوها الأمل، لكنها كانت تجهل ما ينتظرها. لم تكن تتصور أنها بإيجاد عائلة طفلها ستفقده هو وسيفتكونه لنيل ميراثه وحقوقه.

ها هي تصرخ والصراخ يمتد إلى لا نهايات الأفق. وحدها السماء تعلم جراحها الدامية. فتمنحها بعض السكينة نهارا أين باتت تقتات رزقها... بيد أن الألم ينفلت منها ويتحول صراخا إلى لا نهايات الأفق...

* * *

انكسارات مقتضبة

❖ ❖ ❖

- تفضلي عزيزتي

صرخت: ما هذا؟!

تجمدت العـروق وتسمرت في مكانها، لم تقـو على أن تفتح فاها أو تنبس ببنت شفـة. لقد كانت باقـة الأزهار من كل الألوان تعبق، لقد حركت سواكنها ودغدغت جراحا كانت تخدش عواطفها.

نظرت إلى السماء. إنها تحمل بعـض الغيوم ولكنها على أية حال صافية إلى حد ما.

طار صمـتها وراح يلامس جـبال خمـير الممـتدة من الجنوب إلى الشمال، عـانق أشجار الصنوبر المعرشـة والمنتصبة في مملكة الطبـيعة الغنّاءة. تنامى إلى سمعها صوت عذب منعش فأطربها:

- "حمل الزهور إليَّ. كيف أرده؟!"

ارتحل فكرها هناك بعيدا حـيث القهقهات والبسـمات الصادرة من عمق أعماقها.

ران الهدوء، بينمـا ظلت السيارة تلتهم المسـافات التهامـا. كانت سيارة فاخرة تنبيء بأن صاحبـها ذو جاه ومال، لم تحلم يوما بركوب

مثلها، فاقت لبعض الوقت، فأخذت الباقة وضمتها إلى صدرها كمن يضم طفله البكر، وأرسلت تنهيدة عميقة. سألها:

- هل أعجبتك؟ ما رأيك في المفاجأة؟!

- قطعا جميلة. لأول مرة أتلقى باقة بأكملها.

- حقا! خذيها، كم تحوي من زهرة؟

- ثلاث عشرة زهرة. ماذا يعني ذلك؟

- إنه رقم الحظ.

ثم ابتسم، وارضاء لغروره طبعت على خده قبلة شكر وامتنان...

إنها تعدت عقدها الرابع، ولاشك في أنها تحمل روحا مرحة وابتسامة جذابة لا تفارقها مهما انكسر فؤادها.

لم تعِ كم مرّ من الوقت والسيارة تمضي في مسربها بين التواءات ومرتفعات وانحدارات... كانت الموسيقى العذبة تنعش روحها وتروي ظمأها... كانت تحمل بين ضلوعها متاهات أخرى عن الوجود، لربما أضناها البحث وصرخت روحها:

كفّي عن البحث

لكن نداء آخر كان أعظم وأشد وطأة، هي قد تبدو مرحة وبسيطة حد السذاجة في بعض الأحيان، لكنها مكنوزة برغبة جامحة: "أن تعرف الآخر"

احتدمت الأسئلة بفكرها: ماذا يحدث؟ رمقها بنظراته وراح يعبِّر عن مدى سعادته، فقط لأنها تفضلت وأعطته بعضا من وقتها

وقابلته.

قال بصوت مرتجف كطفل صغير:

- لقد كنتِ ملاك خيال فصرتِ على التو ربة الوجود.

أجابته: ماذا يعني هذا؟

- إنني منذ رأيتك سكنت صورتك بخيالي؛ بل لبستني في كل اللحظات والثواني، لم أصدق حينما وافقت على لقائنا.

- أتقطع هذه المسافات الطويلة لأجل رؤيتي؟!

- ولئن كانت أضعافا أخرى سآتيك.

ثم نظر إليها كمن يتوسل الشفقة والحنان.

إنه آخر يوم من أيام الربيع. لا تزال الطبيعة مشحونة بخضرتها، الأشجار تبدو من أعلى القمم تعانق السماء، وانبرت السحب تجتاح الفيصل كمن يريد افتكاك مكان ما بين السماء والجبال... راح الضباب يأخذ فسحة أرحب فوق القمم... تراءى لها المدى كلوحة مؤطرة بين يديها..

غمرها حفيف الأيام القادمة. إشاعات عن الأمل، لكن بعينيها غربة موحشة: ربما عن ذاتها! ربما عن الوجود!..

المهم ستظل ما بقي من دقائق الساعة المقررة حتى تتعرف إليه وقد تلفظه عنها غبار من ألق؟!

لاتزال السيارة تمضي والموسيقى تنبعث، ولاتزال هي ما بين الفكر والعقل تضاجع آلامها حينا وتلعق فضولها أحيانا أخرى...

كانت تجلس لجانبه في سيارته الفاخرة، لكن فكرها كان يسافر بين الفينة والفينة إلى البعاد: قد تؤنب نفسها لأنها خرجت للقاء رجل تجهله، التقته مرة واحدة في مناسبة غريبة بعض الشيء، الأهم: يجب أن تكتشفه.

أوقف سيارته أمام منزل فاخر. نزلت فاجتاحتها نسائم باردة اقشعر جسمها. أراد الإمساك بها فابتعدت... استقلا ركنا وشرع يروي... طال حديثه حتى أضجرها. كانت الغربة تتعمق بداخلها والصمت يكتسحها. سطع شعاع من خلال بلور النافذة فلاح لها في الأفق البعيد. بعض الفرج والمتنفس بوجدانها المترع بالجراح. كان يجلس بافتخار ينشد الالتحام بروحها من خلال تخيره ألفاظا لبقة. لكنها كانت هناك بعيدا... أيّن لا صخر ولا حجر... فقط جداول منسابة تعانق أديم الأرض فتهديها بعض الارتواء... كانت هناك فوق الأناة والجراح تضع بلسما من البراءة يغتال الألم حيث يروح:

- أنخرج قليلا؟

- كما تشائين عزيزتي.

ابتسمت ابتسامة ساخرة وخرجا.

كانت المسافات التي قطعها لرؤيتها لا تعني شيئا بالنسبة إليها. فقط كان ضربا من الجنون أن توافقه على الخروج سويا. وكان نوعا من الخيانة أن يأتي لرؤيتها!

فجأة تذكرت زوجته التي تنتظره مثخنة بالشوق والحنين. تذكرت طفله

وهو يبصر خيال والده قادم من بعيد يحمل إليه بعض الحلوى وهدية...

همست إليه:

- ما الذي دفع بك لقطع هذه المسافة الطويلة؟!

- ما هذا عزيزتي؟ طبعا لرؤيتك.

- وبعد؟؟؟

- تغيرت ملامح وجهه. تلعثم لسانه كأن الأرض تهتز تحت قدميه، جف حلقه، تسللت الكلمات هاربة حيث لا يفقه، ارتوى صمتا لكأنه النزع الأخير.. بينما لبستها العظمة واعتلتها شجاعة لامتناهية:

- لن تسير خلف ضباب الحياة. هي حقيقة مفعمة بالصدق ينبض في كل حين. هي لؤلؤ لن تطمس ملامحه بعض الرغبات الجامحة في اكتشاف الآخر ولن تدميها الشوارع أو المشاعر مهما تطاولت..

- فبادرته بالقول:

- تفضّل أزهارك. زوجتك أحقّ بها منّي

- كان مختمرا حد التوهان: «ماذا يحدث؟» لقد كانت على التو تبتسم فتبعث فيه حياة مختلفة.

- التفت إلى المكان فلم يجد شيئا. فقط أزهار ملقاة على الرصيف.

❖ ❖ ❖

قطار المساء

❖ ❖ ❖

مشى بخطى متسارعة محملا بعلب مختلفة الأحجام والألوان، كان يهرول تجاه محطة القطار... اقتطع تذكرة واقتنى بعض الجرائد والمجلات. تبعثرت أغراضه على الأرض فانكب يجمعها. ثم واصل سيره.

لقد كان يومه هذا حافلا زاخرا بالمفاجآت.

- القطار قد وصل. إنه على السكة رقم ٥ أرجو التوجه إلى هناك شكرا.

- راق له صوتها العذب ومشى بخطى سريعة كعادته. صعد أدراج القطار الحديدية. استقل مقعد قرب النافذة... وبعد عدة دقائق انطلق القطار مصفرا صفيرا مفزعا. فأفزع هدوءه وركونه للسلم..

لقد حل فصل الربيع فبدت الأرض كعروس عذراء تكسوها أزهار البوقرعون والأقحوان وسنابل القمح أو الشعير وهي لاتزال فتية بعد... تأمل المشهد من خلال النافذة، فسرت فيه رعشة خفيفة... لطالما تهزه الطبيعة، تحرك فيه أغواره الدفينة، تحيى فيه شبابه القريب البعيد فهو الآن قد تعدى عقده الخامس أو يزيد، وأنه بات متقاعدا

عن العمل بعد ثلاثين سنة من العمل الدؤوب كمحراث انغرس في عرض الأرض وراح يهز أعماقها ويبعثرها. لقد مارس عديد المهن حتى استقل وظيفة بشركة خاصة أرضت غروره إلى حين...

- التذكرة من فضلك.

- تفضل.

- آه! حسنا بطاقتك من فضلك من دون إزعاج.

- كلا، هاك. إنه واجبك تبعا.

ثم خبأ بطاقة الراكب الوفي وراح يبحث في أشيائه، كانت تسكنه رغبة جامحة في أن يمارس طقوسه المقدسة: أن يقرأ. اليوم وقد غزاه الشيب لا ينكفيء يقرأ ويطالع كل ما يحيط به. أخرج الجرائد والمجلات وضعها جانبا. رتبها. ثم شرع يتصفحها واحدة واحدة، زم شفتيه وهو يلمح خبر تغيير اسم فلان مكان فلان على الركن كذا من هذه الصفحة... في البداية آلمه الخبر... لقد أنس بكتابات فلان وهو من يجد فيه بلسما لإخماد جراحه...

همس قائلا: تماما كمصيري. آه! منذ سنوات لم أقل شعرا ولم أصافح صديقا.. فقط لاتزال الصحف والمجلات.

الحنين إلى الزمن المفعم بالعطاء يزلزل أوصاله، كنت أريدها تكتب الشعر. كنت أريد أن أنهض صباحا لأقرأ قصيدة من تأليفها.

رغبة دافقة عارمة تلبسه طوال حياته. لم يكف عن التمني. آه! كم أتمنى. ثم يصرعه الواقع. زوجة واقعية متخرجة في شعبة العلوم

ثم زاولت عملها أمام الحاسوب. ولا غيره أنيس. كلا إنه يذكر يوم وضع لها قصيدة من نسج مشاعره قرأتها وابتسمت. نعم! اكتفت بالابتسام... فما ينتظر منها... لايزال القطار يشق المساحات الرحبة ويعبر الأودية عند القمم فتبدو الطبيعة بما حوته وكأنها تحت أقدامه... وتمتد الجبال يمنة ويسرة وقد كستها الخضرة فترى بعض المنازل الملقاة هنا وهناك... ولربما تراءى قطيع من الأغنام أو الأبقار وبعض الرعاة وقد تجمعوا للحديث تارة أو الغناء تارة... هي الطبيعة العذراء... على امتداد الشمال الغربي... فيتسنى لك الغوص في عباب الطبيعة بعيدا عن الضوضاء والازدحام.

يكاد يطوي المسافات ويثنيها وهو يفيق ذاكرته ويبعثر ماضيه، لكم جال عديد المدن والقرى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب... لكم حلق بعيدا عن أرض الوطن يرفل في غياهب الأدغال حينا والحضارة حينا آخر. الأهم أنه تسكع كثيرا وتألم كثيرا..

- ... يجب أن تعود لترى والدك إنه يحتضر...

- لقد توفي منذ عدة أشهر... كان يأمل أن يراك.

تلقى الخبر بكل صمت، يذكره يوما كيف تسمرت العروق في أوصاله.. جف حلقه، لكنه لم يبك. نعم! هو لم يبك والحال أن والده قد بكى لأجله حين طردوه من المعهد وهو لايزال بعد في السنة الثالثة... إذن طرد من مقاعد العلم وحرم من تلقى المعارف:

أتراه يظل على هذه الحال!... إذن بات بلا مدامع: لن يبكِ

والده، ولن يبك حرمانه من مدارج العلم، ولن يبك زوجة شاعرة تكتب له قصيدة صباح كل يوم... أحسه جائعا فأخرج بعض الخبز والجبن وراح يقضمها ووجهه منتصبا إلى الخارج.. الطبيعة. أنهى طعامه ثم عاد إلى المجلة يتصفحها، إن جلّ الأسماء المرسومة أمامه كانت لوقت قصير أسماء لأصدقائه لا تنقطع المراسلة فيما بينهم. اليوم يبيت وحيدا يحمل بين ضلوعه الماضي ويصمت، تراه أخطأ حين آثر الابتعاد عن ذلك العالم؟ قد تكفيه «يارا» أنيسا ورفيقا في الوحدة! فجأة ارتسم أمامه المشهد يتدفق حرارة:

- قلت لك هذا الاسم لا يمكن تسجيله، هو ليس اسما عربيا،

- أتراك الأصفهاني أو المعري ولست أدري؟

- إذن لن نسجل هذا الاسم وافعل ما يحلو لك.

ويختنق وعودا ونذرا:

- إنني حر في اختيار الأسماء التي أريد لأطفالي. ولا يوجد قانون يمنعني حريتي هذه، وعليه سأسجل اسم يارا لابنتي.

ارتسم على وجهه بعض الانشراح، فالأهم أنه أبا يارا بعد تدخل بعض أصدقائه... كان القطار يلتهم المسافات، هو قد يتوقف قليلا في بعض المحطات لكنه يواصل سيره، بدت الظلمة تجتاح الخارج. راحت الشمس إلى مرقدها. تضاجعه، لطالما أحب كثيرا منظر غروب الشمس: إنه يبث فيه الأمل والاشتياق اللامتناهي للغد... ترى ما يخفيه الغد؟

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن... حدث نفسه بأن لامناص من

فعل القـدر. الحقيـقة أنه لم يكن قدريا؛ لكن ألايحـصل على امرأة تكتب له قصيـدة صباح كل يوم... فجـأة راح ينشد بعض الأبيات التي كان يرددها منذ سنوات مضت:

قد أكون الساعة التي بها تسيرين

قد أكون الهمس الذي عليه تنامين

قد أكون الصوت الذي إليه تحنين

وقد أكون النبع الذي إليه تهربين...

ولكنك تظلين المرأة التي

إلى شعرها تدفعيني... للبحث كل يوم من جديد..

أرسل القطار صـفـيـرا مـدويا عـاليـا وهو يخـرج الـنفق المظلم الطويـل... أنه شـــارف على الوصـــول... لم يبق بـه إلا بعض الركـاب.. نظر أبو يارا إلى الساعـة: لقد أمـضى القطار ما يـقارب ثلاث ساعـات... لم يشعـر بطول المسافـة ولا بوحدة... كـعادته يبحر تارة ويرسـو تارة أخرى على جنبات ماضيـه... لم يتبق سوى خمس دقائق ويصل... تسارعت اليه بعض الأسئلة:

- ترى ماذا طبخت أم يارا هذه الليلة؟

لشد ما يشـتاق اليها. ترى يارا لاتزال مسـتيقظة أم خلدت للنوم؟ فهي بعـد رضيعة ذات خـمسة أشهر... عـساها تصيـر شاعرة ذات يوم؟... تصارعت الأسئلة إلى حين توقف القطار...

❖ ❖ ❖

.. وأينعت لغة الزُهور

❖ ❖ ❖

وَمِنْ جَدِيد، أُخْـفِي مَشَاعِـرِي: فَفِي أَحْشَـائِي يَقْبَعُ جَنِينٌ مُتَـمَرِّدٌ يَرْفُضُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبٌ أَوْ تَارِيخٌ أَوْ وَطَنٌ... فِي أَحْشَائِي طِفْلٌ يَكْبُرُ وَيَكْبُرُ، وَفِي شَـرَايِينِه يَعِيشُ الحُبُ وَالأَمَلُ، لطَالَمَا حَدَّثَنِي ونَحْنُ مـعاً فِي أَعَالِي الجِبَال: عَنْ أَحْلامِه وَطُموحَاته، كَانَ يُمْضِي السَّاعَات وَهُوَ يَرْوِي دَونَ كلل أو مَلل...

كَـأنَ يَحْلُمُ بصوت عَـال وَيُشْـرِكُني أحْلامَـه وكُنْتُ أُمـضي تلْكَ السَّاعَات غَائبَةً عَن الوُجُود لا أعْـبَأُ بِمَا يُرْوى.. لأنَّني أَخَالُهَا أَحْلاماً لا وَطَنَ لَهَا، لا عَفْـواً كُنْتُ أَنْسَجِمُ مَعَهُ خـلالَ الدَّقَائق الأُولَى حَتَّى أَحْسَـبَهُ يُحَدِّثني عَنْ أَحْلامِي وَطُـمُوحَاتي.. فمَـا أحْسَبُهُ إلا كـياني الآخرَ...

ذاتَ يوم، صَحَوْتُ بَاكراً علَى غَيْر عَادَتي وَأَسْرَعْتُ بتَنْظيف المكَان الذي أقيمُ به ثُـمّ نَظَرْتُ فى المرْآة، وَطَالَ نَظَري حينَهَـا دَوّتْ ضحْكَةٌ سَاخرَةٌ في أَحْشَائي ثُمَّ سَألني: مَنْ تَنْتَظرين يا أُمَاهُ؟

نَظَرْت بأسَف دُونَمَا كَـلام. فاستَطْردَ قـائلاً: مَا الذي حَلَّ بك يَا أُمَّاهُ؟

لا تَنْتَظري أحـداً لأنَّني لا أُريدُ أحَـداً سـوَاك، أنْت الوطنُ، أنْت الزَّمَنُ، وأنْت الأهْلُ، سَنَكونُ دائمـاً مـعاً نُصَـارعُ الأمْوَاجَ ونَتَـخطَّى الصِّعَـابَ، ستَلْبَـسيْنَ الذَّهَبَ وَالحَـريْر، ستَـسْكُنيْنَ قَصْـراً يَعْلُو كُلَّ القُصور، ستُسَافرِيْن كَطَير حُرٍّ طليق مِنْ وَطَن إلى آخَرَ، ستَ. . .

ظلَّ يومَهَـا يَرْوي سَاعَات وَسَـاعَات كُلَّها كَلمَـات تَبْدأُ بالسِّين لَمْ أَسْمَعْ سـوَاهَا، ثُمَّ. . . رُحْتُ بَعـيْداً بَعيْـداً هُنَاكَ حيْـثُ لا أحَدَ لي سوَى تَنْهيدة بَاهتَة وتَسـاؤلات حَيْرَى: تُرى مَنْ يَرْوي ظمأى ويُطْفيء لَهيْبي؟ لَطَالمَا بتُّ وَحيْدة دُونَمَا أنَيس، لَطالمَا زَرَعْتُ الأَرْضَ التْي أَحْيَا فيْهَا وانْتَظرتُ حَتَّى تَمْنَحني خيْراتُهَا، كَـمَا وَهَبْتُهَا عَرَقي وَتَعبي لكنَّها غَالبـاً مَا تَبْـخَلُ عَلَيَّ بمَا مَنَحتْـها، لَطَالَما بتُّ لَيَـالي طوالاً أنْتَظرُ مَنْ يَطْرُق بابي ويُذْهبُ عَنِّي بَعْـضاَ منْ كَدَمَـات الماضي وَخَوْف الحـاضر وحيرة المسْتَقْبل. حتَّى جَـاءَ اليوْمُ الذي اخْضَرَّ فيه زَرْعي وأيْنَعَ وبَدتْ الأرْضُ في أبْهى حُلَّة لَهَـا، فَأَخَذَني مَنْظَـرُها الخَلاَّبُ وآثَرْتُ أنْ أرفُلَ في فَيافـيها إلى أنْ تَعبْتُ. . أَلْقَـيْتُ بجَسَدي عَلَى بساطهَـا لأسْتَريْح قليلاً، ومَـا أن أغْمَضْتُ عَـيْنيَّ حَتَّى أَحْسَسْـتُ بمَنْ يَقفُ بجَانْبي. . كَانَ يَتأمَّلُني مَلياً دونَمَا كلام. . . لَمْ أشَأْ فَتْحَ عَيْنيَّ. . . أردْتُ مَعْرفة ما سيَفْعَلُ، لكنَّهُ ظلَ يَرْمُـقني أمداً منَ الزَّمَن دُونَما حرَاك، ثُمَّ جلَسَ بقُربي وفي صـمْت أحْسَسْتُ برَائحَـة الزُّهُور قريبـةً منِّي، ووَجَدْتُني أفْتَحَ عَيْنَيَّ لأراهُ وقَدْ مَدَّني بزَهْرَة رائعَة لَمْ أرَ مثلها منْ قَبْلُ. .

مَرَّتْ سَنَواتٌ ونَـحْنُ نَعيشُ مَعـاً. كانَتْ لُغَـتُنا الزُّهورَ طوَال تلكَ

الأعْوام.. ظلَّ صَامتاً فـي كُلِّ شيء، لَمْ يَغضَبْ، لَمْ يَثُرْ، لَمْ يَنْفَعِلْ قَطْ. وكُلَّ مَا كَـانَ يَفْعَلُهُ أنَّهُ يقدِّمُ زَهْرةً ويَضمُّني إلَيْـه إلى أنْ عَرَفتُ بأن لُغَـتَـهُ الزهُورُ... وأيْقَنْتُ أنَّهُ الذي طَالما انتظَرْتُ. كَـانَتْ عَـيْنَاهُ درْعاً يحميْني منَ الغَـضَبْ، ويَدَاهُ تُؤْنسنِي في الوحْدَة، كَانَ لي أَمَلاً مُشـعاً، حَـتَّى الأرْض صَارَتْ تَنْعَمُ عليَّ بخَـيراتهـا، كَانَ هُوَ الحُبُ والأمَـانُ.. بَلْ مَـا خُلقْتُ إلا لأجْلـه، حـتَّى أحْـسْـست بِشيء في أحْشَائي يَوَدُّ الخُرُوجَ مـنِّي وَمنْ ضُلُوعي، يَودُّ الصُّراخَ بأعْلَى صَوته، وذاتَ يَوْم اخَذَتْني غَفْوةٌ لا إرادية أُفَقْتُ عَلَى إثْرهَا لأَجدَ الرَّجُلَ الذي انتظَرْتُهُ طَويلاً يَنْظُرُ إليَّ بإمْعَان، ثُم يَهْتفُ: إنِّي رَاحلٌ، ربُما أعُودُ.

كلُّ شيء رَاكنٌ للهُدُوء وَالسَّكينَة، لا شَمْسٌ ولا قَمرٌ، لا طَيْرٌ ولا حجَـرٌ، لا شيء على الإطْلاق سوَي أنْفَـاس تَخرُجُ بانْتظام فَـيَنْتَفِضُ الصَّدْرُ ثُمَّ يَهْدأُ.

فَجْأَةً رَنَ الجرَسُ فَسرَتْ رَعْشَةٌ في الكون ثُمَّ دبَّت الحَيَاةُ وَصَارَ كُلُّ شيء يَتَحـركُ، يرْقصُ يُغَنِّي و.. مَعَ رَنين الجرسِ عَلَـتْ عَلَى وَجْهي بَسْمَةٌ فَتَساءَلْتُ: تُرَى هوَ؟ ورَاحَتْ قـدَمَايَ تَقُودَاني إلى الشُرفْة المُطلَّة على العراء لأرَى بَلْ لأتَأكَّدَ «أحَقَا هُوَ؟».

بَعْـدَ مُنْتَـصف اللَّيلِ... كُلُّ شيء باتَ مُـجَّـرداً منْ أيِّ حس أوْ شعُور، بلْ كَـانَ كَذَلك قَبْلَ هَذَا الجَرَسِ الذي لَمْ يَـتَوقَّفْ، وَأسْرَعْتُ الخُطى.. آه.. أحَقاً يُفكرُ بي في هَذه السَّاعة المتَأخِّرة؟!

مرةً أُخْـرَى ابْتسامـةٌ سَاخرةٌ عَلَى هَذَا التـفْكير المقـيت، ارْتَسَمَتْ

صُورةُ لماضٍ بالأمْس كَانَ حَاضراً، ذكْرَى تَمرُّ لَوْحَة مُغَردَةً بَيْنَ عَيْنيَّ كَلَمْحِ البَصَرِ وتلْكَ الوُعُود: أنتظرَهُ أرْجُوك. فَقَطْ انْتَظري بَعْضَ السَنَوات، ثلاثُ سَنَوات فَقَطْ وَسَأُعَوِّضَك عَنِ الحرْمَانِ وَانْعِدام الأمَان، فَقَطْ ثقي بي وَخُذي قَلَماً، عُدّي اللَيَالي إنَّهُنَّ قصارٌ، سَيَمرُّ الوَقْتُ بسُرْعَة وسَأحْضُرُ إليْك بجوَاد أبيَض حتىَّ أخْطفَك. . .

حَتى الأحْلامَ طوَال تلْكَ السَّنَوات صَارَتْ مُشْتَركَة لطالما كَانتْ أحْلامُ يَقَظة نرْسُمُ فيها مَشَاريعَ وَمَشَاريعَ. . تلْكَ غُرْفَةٌ نَوْمنا، وَهَذا عُشٌ يَجْمَعُنا مَعاً.

كُلُّ الطُّرُقَات التي مَرَرْنَا منْها يَوما تَوَاعَدنا عَلَى أَنْ نَمْشيها مَرَّةً أُخْرَى وَبُخطى ثَابتةَ، وتَكْبرُ الأحْلامُ عَسَاهَا أحْلامي وَحْدي الأكْثَرَ صدْقاً تَمْتَزِجُ ببعْضِ الْوَهْم.

لا لَيْسَ بَعْضَ الوَهْم؛ بَلْ إنَّهُ الوَهْمُ بعَيْنه. . . هَا قَدْ مَرَّتْ ثَلاثُ، أربعُ، خَمْسٌ سنوات. . لا شيء. . . لَقَدْ عَرَفْتُ أنَّهُ كَانَ أكْبَرَ وَهْم. الآنَ عَلَى التَّو تَتَبَخَّرُ الأحلامُ تَتَلاشَى، وَأَسْأَلُكَ: مَنْ أكُونُ بالنسْبَة إلَيْكَ؟

فَيُجيبُ بسُخْرية: أصْدقَاءُ لَيسَ مثْلَنَا أصْدقَاءُ، لكنَّنا أصْدقَاءٌ وَكَفَى، فَأغْرُبُ عَنْهُ، لا أستَطيعُ التَّصْديقُ. . . المشاعرْ مُجَرَّدُ سَرَاب والانتظارُ مُجَرَّدُ ضَيَاع. . . لكنْ لمَ انْتَظرْتُهُ وَطفْلي قَابعٌ بدَاخلي وَمَعَ ذَلكَ أظلُّ أنْتَظرَهُ. لكِنْ الآنَ لا، لنَصْنَعَ غَداً مَعاً، بَلْ أنْتَظرهُ مَاذاَ سَيَفْعَلُ؟ مَاذا سَيَكُونُ؟ وَأنَا أنْظُرُ إليه منْ بَعيد أرْقُبُهُ، فَلَرُبّمَا احْتَاجَني،

فَمَنْ غَيْـري سَيُسَاعِدهُ. لَطالماَ سَاعَـدْتُهُ... فَهَلْ سَأتَوَقَّفُ الآنَ؟ رَغْمَ كُلِّ شَيءٍ إنَّهُ أَجْمَلُ حُلْمٍ حَاكَهُ لِي القَدَرُ وأَرْوَعُهُ.

كُلُّ ذَلِكَ جَالَ بِخَاطِري وَأنَا مُـتَّجِهَةً نَحْوَ الشُّرْفَـةِ في هَذِه السَّاعَةِ المُتَأخرَةِ، مَـازَالَ لِي بَصِيصُ أَمَلٍ، سَيَحْتَرِمُ مَـشَاعِري وَيَأتِي لِزِيَارَتِي، لنْ يَتْـرُكَنَا وَطِفْلِي كَـمَا لَمْ أتْرُكْـهُ أنَا قَطُّ، اقْـتَرَبْـتُ منَ الشُّرْفَـةِ ثُمَّ تَرَاجَعْتُ إلى الوَرَاءِ، سَـأفْتَحُ البَابَ، لاشَكَّ أنَّهـا أجْمَلُ مُفَـاجَأة في هَذه الليلة الحَالكَة الظلْمـة: سَأرْتَمي بَيْنَ أحْضَـانه، سَيَغْمُرُنـي بِحُبِّه وَمَوَدَّته إنّهُ الصَّديـقُ والحَبيبُ... وفي لَحْظَةٍ يَصْعُبُ عَـدُّهَا، سَحَبْتُ قُـفْلَ البَابِ وَانْدَفَـعْتُ: عَجَـباً! لَـيْسَ هُوَ، لِمَ لَمْ يَحْضَـرْ، مَنْ هَذا الرَّجُلُ الغَـريبُ إنَّهُ يَرتَـدي زيّاً عَـسْكَرِيّاً، حِـينَهَـا نَسِـيتُ كُلُّ شيء وَسَألْتُـهُ: «مَنْ أنْتَ»؟ اعتَـذَرَ قَائلاً: آسفٌ لقُـدُومي في هَذا الوقْت. وَمَدَّني بِرسَالةٍ فَتَحْتُها بسرعَة: إنَّه خَطَّهُ فَلِمَ لَمْ يَحْضَرْ، قَرأتُ الرِّسَالَةَ وَصَوْتُـه يَرنُّ بأذُني: «صَديقَـتي العَزيزَةُ: اسْـمَحي لى أنْ أقُـولَ لَك حَبيـبَتي الوَحيْدة إلى الأبَد، آسفٌ عَنْ سَنَوات العـمُرُ التي مرَّتْ دُونَ أن نَكُونَ مَعاً في وكْرِنا الصَّغير، إنَّني أعْتبركُ كُلَّ مَا في الوُجُود فَأنْت الأُخْتُ، الصَّديقة، الحَبيبَةُ، الزَّوْجَةُ... إنَّني أمْنَحُك إسْمى فَأرْجُوك اقبليه.. هُنَا تَوَقَّـفت الرِّسَالةُ، نَظَرتُ إلى الرَّجُل أسْتَوْضِـحهُ الأمْرَ، فَمَهْمَه، ثمَّ قَالَ: «آسفٌ سَيِّدَتي زَوْجك في المُسْتشْفَى».

لَمْ أقُمْ منْ وَقْع الصَّـاعقة إلا فـي الغَد، فَوَجَـدْتني مُنْكفئـةً على السَّـرير وَالجُـمْعُ حَـوْلي، لم اسْـأَلْ سَـوى عَنْهُ.. أيْنَ هُوَ؟ قـادَتْني

المرضة إلى الغُرْفَة المجاورة، وَجَدْتَهُ يَرْقُدُ بسَلام، لَمْ أوقظه، قَبلْتَهُ، جَلَسْتُ قُرْبَهُ، فَتَحَ عَيْنيه بهُدُوء، تَغَيَـرَّتْ مَلامحُ وَجْهه، وَمَعَ ابتسَامة خَفيـفة حَاوَلَ أنْ يَمُدَّ يَدَيـه فَلَمْ يَسْتَطعْ، سَاعَدتَهُ حَـتى الْتقَتْ يَدَانا. جمَعَ كُلَ قُوَاهُ. شَعُرتُ أنهُ يُريدُ أنْ يَحـتَوِيْني بَيْنَ ضُلُوعه، فوَضَعْتُ رأسي عَلَى صَـدره كَـمَنْ يَبْـحَثُ عَنْ الراَّحـة بَـعْـدَ تَعب وَإرهاق شَديدَين. سَـمعْتَـهُ يَهْمسُ لي «أحبُّك»، رَفَـعْتُ رَأسي فكَانَتْ عَيَنَاهُ تَنْهَمِـران دُمُوعاً... لمْ أرَه طُوال حَـيَاته يَبْكي، كَـانَ فَقَطْ صَامـتاً، وَبْعـدَ الصَّمْت المتـواصل الآن يَذْرِفُ دُمُوعـاً، كَفْكَفْـتُهـا لهُ بأطرَاف أصَابعي، ورُحْتُ أحْلُمُ منْ جَديد... سَنَخْرُجُ مَعاً لنَحْيا وَنبْني عُشًّا صَغيرا بَعـيداً عَن البَشَر، فقطْ تَحْتَ ضوْء القَـمَر بُالقرب منْ جدَاول الماء. لنَأنسَ بزَقزقة الشَّحَارير، أعَدْتُ رأسي إلى صَدْره وَقُلْتُ: «لطَالمَا انْتَظرتُكَ وَسَـأظلُّ أنْتَظرُكَ، لَطَالما أعتَـبَرْتُ نَفْسي زَوْجَـتَكَ إلى الأبْد وسَأبْقى كذلكَ».

فَجـأة لمْ أعُد أسْـمع شيئـاً في الغرْفة عَـلى الإطلاق، أينَ دَقَّاتُ قَلبه؟ أيْنَ أنْفَاسه؟ لَكنْ.. رَفَعْتُ رَأسي لأجدَ عَيْنَيه مُغْمضَتَين كَطفْل بَريء، وَيَدَيْه اللّتَين كَانتا مُمْسكتَيْن بَيَديَّ أسْلَمَتَا كُل شَيء، لا...

صَرَخْتُ بأعْلَى صَوْتي، نَادَيْتُ الأطباءَ وأنَا أتسَاءَلُ: مَاذا حَلَّ به؟ لمَ لا يتكلَّم... وتَعـالى صُـراخي: آ آه إلى مَـا لا نهـايةَ، لاَ، لاَ تَتركُني بَعْدَماَ وَجَدتُكَ بَعدَ طُول بحث وَانْتظار...

... سَنَواتُ مَضَتْ مَازلْت أنتظره، نعَم، ليـحْضُرَ وَيَحْملَنى إلى

فردوسه كَماَ تَوَاعَدْنَاَ. . فَحَتْماً سَنَلْتقي، ويَبيتُ كُلُّ شيْء يرْتَعش بَينَ يَديَّ إلا تلكَ الذكـرَيات. . . سَنَوات وَسنَوات كَـانتْ لُغَـتُنا الزهورُ، سنَوات وَسَنَوات لَمْ يَنْطقْ بكلمةَ لأصْـحُو اليومَ عَلَى صَاعـقة، وكَانَ زلْزالاً تَحتَ قَدَميَّ وكأنَّني أُكْسَرُ إلى أجْزاء صغيرة، تُرى مَنْ ذَا الذّي يُلملمُ شتَاتي الضائع، وَحال رَحيله كَانَ طفْلي يَصْرُخُ فيَّ: «أنا الذي سَـأُلملمُ شَـتاتـك الضَّائـع». سَنَوات أخْرَى أنْـتَظرُ طفلي الذي وَرثَ اللُّغات وكُلَ الكلَمات، بَـلْ عَسَاهُ انتزَعَها مـنْي حتى بتُّ في صَمت دائم، فَجـأة اسودَّ المكانُ وَأظْلَمَ وَكفَّ كُلُّ شَيء عَن الحَـراك وتَتَالتْ أنفَاسي حَتى كدّتُ أختنقُ، ثُم شَـعَرْتُ بألم حاد في الرأس، حَسبْتُ الأرْضَ تَنْطبقُ عَليَّ، أطْلَقْت صَـرْخَةً مُـدوِّيَةً اهْتَزَ لَهَـا كيَـاني: «إنَّهُ طفْلي، الآنَ يَخْرجُ مُني، الآنَ يُشاركَني أحْلامي، وآمَالي، الآنَ يَتَغيرُّ كُلُ شيْء، إنَّهُ الرَجُلُ الذي طَالمَا أحْـبَبْتُـه في أحْشَائي. هـذه العَيْنان وَالشَفَتان واليدان، هذه الرائحةُ تَخرج مني لَترىَ النَّورَ. . رَمَقْتُهُ بَنظْرة حَنَان فتَـبسَّمَ، نَعَمْ ابْتسَمَ. . ابْنُ اللحظات منَ الزَّمَن، وبَاتَ يَتَـحَّرك أمَامي بخفة ويَتَكلمُ، لكنَّنيَ أصْمُتُ فيما هُوَ يَتكلَّم، أصْمُتُ فيما هُوَ يَسأَلْ عَنْ كُلِّ شيْء: «سَألني عَنْ اسْمه، عَنْ أبيه، عنْ أهْله». . .

ثُم راحَ يَحْملُ معْولاً نَحوْ الأرْض، رَاح يَعمَل كَمَا كَانَ وَالدُهُ مُنذُ أمَد ومُـذْ مَدَني بالزهرَة، حَقـاً كَأنهُ بُعث منْ قَمـرٍ ليضُيء دَرْبي منْ جَديد. . وليُعَلمنَي لُغَةَ الزّهُور.

❖ ❖ ❖



الفهرس

